الفصل الثانى
الخصائص والكمالات النورانية

إن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على نبينا سيدنا محمد ﷺ بخصائص وكمالات نورانية حظى بها وحده.

ونزل بها الوحى فى آيات قرآنية متعددة فى سور شتى.

وهى إن دلت على شئ فإنها إنما تدل على قدره وشرفه ورفعة كمالاته وعلو شأنه وعظيم مجده، وصدق تبليغه واخلاص عبوديته وحسن ولايته وسمو أخلاقه وأرفع صفاته. وأزكى استسلامه وانقياده لأمر ربه عز وجل. فكان له عند ربه عز وجل المقام الأسنى والرتبة العليا والمقام المحمود والجزاء الأوفى والرضا والرضوان وكان له وعد ربه عز وجل ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾.

لقد خلقه ربه سبحانه وتعالى ورباه وأدبه وطهره وعلمه. وجمله وكمله. وخلع عليه من حلل البهاء والجمال والنور والإيمان ما بين فى آيات القرآن سر تقدمه على سائر الأنبياء والمرسلين.

سيدى يا رسول الله يعجز القلم عن أن يسطر ما يترجم عما فى القلب من معانى ومشاعر تفيض لك حبا وعرفانا ولربى عز وجل حمدا وشكرا على ما أولاك به من النعم. وكان فضل الله عليك عظيما وما سجلته على هذه الصفحات هو قليل يكثر نفعه من كثير يصعب حصره. وفيه بإذن الله تعالى – بغية كل طالب وتحفة كل راغب. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

أولا: القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل أنزله على حبيبه المصطفى ورسوله المجتبى سيدنا محمد ﷺ بواسطة الوحى فى اليقظة التامة. وليس مناما ولا إلهاما.

أنزله الله تعالى هداية ورحمة ونورا ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢].

وهو كلام الله القديم نزل بلفظه ومعناه. وهو المعجزة الكبرى والآية العظمى الباقية إلى أن يرفعه الله تعالى من الصدور تحدى الله تعالى به الخلق جميعا: تحدى به العرب. وهو نزل بلغتهم فى فصاحته وبلاغته وبيانه. وتحدى به غير العرب فى شرائعه وقوانينه وأحكامه. لأنه معجزة دالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقال عز وجل: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ [هود: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ [الطور: ٣٤].

فالقرآن الكريم أنزله العلى الكبير على النبى الأمين سيدنا محمد ﷺ ليكون للعالمين دليلا ومنهاجا وشريعة وأحكاما قال الإمام القرطبى فى مقدمة جامعه: (١).

والمرسل رسوله بالبيان محمدا ﷺ ما اختلف الملوان وتعاقب الجديدان. أرسله بكتابه المبين. الفارق بين الشك واليقين الذى أعجزت الفصحاء معارضته. وأعيت الألباء مناقضته

وأخرست البلغاء مشاكلته فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها. وأوامره هدى لمن استبصرها وشرح فيه واجبات

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١ / ٥.

الأحكام. وفرق فيه بين الحلال والحرام وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام. وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار. فقال تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام ٣٨] خاطب به أولياءه ففهموا. وبين لهم فيه مراده فعلموا. فقرأة القرآن حملة سر الله المكنون. وحفظة علمه المخزون. وخلفاء أنبيائه وأمناؤه. وهم أهله وخاصته. وخيرته وأصفياؤه قال رسول الله ﷺ (إن لله أهلين منا) قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: (هم أهل القرآن أهل الله وخاصته) أخرجه ابن ماجة فى سننه وأبو بكر البزار فى مسنده.

فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه. ويتذكر ما شرح له فيه. ويخشى لله ويتقيه. ويراقبه ويستحييه. فإنه قد حمّل أعباء الرسل. وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٤٣] ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله. أوكد منها عن من قصر عنه وجهله ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع. وزجرته نواهيه فلم يرتدع. وارتكب من المآثم قبيحا. ومن الجرائم فضوحا. كان القرآن حجة عليه وخصما لديه. قال رسول الله ﷺ: (القرآن حجة لك أو عليك) خرجه مسلم. فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ويتدبر حقائق عبارته ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبه. قال الله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [ص: ٢٩] وقال الله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤] جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ويتدبره حق تدبيره) أ.هـ.

فهؤلاء الذين يدعون بشرية القرآن وأنه من تأليف النبى ﷺ. هم كذابون وضالون ومضلون لكفرهم بما أنزل الله تعالى وادعائهم زيفه وتزويره خذلهم الله تعالى وأصمهم وأعمى أبصارهم وختم على قلوبهم ولهم عذاب عظيم.

قال الله تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾

[البقرة: ٢٨٥]

وقال الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال الله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف: ٢، ٣].

وقال الله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [ابراهيم: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ١ - ٣].

وقال عز وجل: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقال عز وجل: ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١، ٢].

وقال عز وجل: ﴿ الٓمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فيه من رَّبِّ الْعَالمينَ ﴾

[السجدة: ١، ٢]

وقال الله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ٤].

والآيات المنزلة في هذا الشأن كثيرة ويكفينا هذا للاستدلال على أن القرآن الكريم منزل من رب العالمين على حبيبه الأمين ﷺ وقد بدأ نزوله في شهر رمضان في ليلة مباركة هي ليلة القدر.

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فيه الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ من الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣].

وقال المولى عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١].

إن هذا القرآن هو المنحة الكبرى والهدية العظمى والمعجزة الباقية التي آثر الله بها رسوله محمدا ﷺ وأمته، أنزل الله تعالى القرآن الكريم ثم جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا وتحقيق ما كان منه محتملا. ليكون له مع تبليغ الرسالة. ظهور الاختصاص به. ومنزلة التفويض إليه ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

[النحل: ٤٤]

وقال عز وجل: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[الشورى: ٥٢]

ثم جعل الله إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبه على معانيه. وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد. فيمتازوا بذلك عن غيرهم. ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة: ١١] فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا. واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا. قال الله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤] والقرآن كلام الله وهو نور يرسل إلى القلوب. والقلوب أوعية يتلون ذلك النور بلونها. وكل عالم يرسل بتفسيره شعاعا حسب استعداده وقابليته. وما استودع فيه من الهبات الإلهية النورانية.

يقول سيدنا الإمام على رضى الله عنه وهو يشير إلى صدره: (إن هاهنا علوما جمة. لو وجدت لها حملة).

وروى عنه أيضا أنه قال: (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا).

هذا ويجب على قارئ القرآن أن يتلو آياته بتدبر وخشوع لله وخضوع ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه: (والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه فى كلامه ولكن لا يشعرون).

وقال أيضا - وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه. فلما سُرّى عنه قيل له فى ذلك. فقال: (ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها. فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته) وقال العالم العارف ابن عجيبة رحمه الله تعالى:

فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفا بين يديه وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه ويناجيه بإنعامه وإحسانه. فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

والثالثة: أن يرى فى الكلام المتكلم فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته. بل يكون فانيا عن نفسه غائبا فى شهود ربه. لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار.

فالأولى لأهل الفناء فى الأفعال والثانية لأهل الفناء فى الصفات والثالثة لأهل الفناء فى شهود الذات. رضى الله عنهم وحشرنا على منهاجهم. آمين. أ. هـ[1].

أما أولئك الذين يقرءون القرآن وقلوبهم عنه غائبة وعقولهم عنه شاردة. هم يسيئون إلى كتاب الله. وذلك هو الخسران المبين، ذكر الإمام الحافظ أبو الحسن رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: (اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها. وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين. وسيجئ بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم) ورواه القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن.

لقد أوتى رسول الله ﷺ القرآن وقد أمر بتبليغه وبيانه – كما ذكرنا سلفا – وبيانه هو ما ورد فى سنته الشريفة من تفسير مبهمه وتفصيل مجمله وتخصيص عامه. وبيان شرائعه وأحكامه. فالسنة لازمة للقرآن ولا تنفك عنه. ويتجلى ذلك فيما يلى:

أولا: السنة تؤكد على أحكام القرآن.

وثانيا: السنة تفصّل وتوضح أحكاما جاءت مجملة فى القرآن.

وثالثا: السنة تنشئ أحكاما لم يذكرها القرآن الكريم.

وهو ما قرره الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتابه «الرسالة» مبينا العلاقة

---

(١) البحر المديد ١/٧٣.

بين القرآن والسنة وقد شرح ذلك الموضوع بوضوح [1]. وبعد: إن القرآن الكريم بدرره ولآلئه وأصدافه وبأنواره وإشراقاته وبأسراره ظاهره وباطنه. نعمة كبرى ومنة عظمى اختص الله بها نبيه وأمته. وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وروى البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

اللهم اجعل القرآن حجة لنا لا علينا .. آمين.

* * *

ثانيا: رحمة الله للعالمين وعموم رسالته

إنه عالم قد شارف النهاية. كفر بالله عز وجل وجاهلية سوداء قاتمة، يهودية محرفة وضالة مضللة حاقدة على ما سواها من البشر. ونصرانية هزيلة مزيفة. لقد كفر أتباع اليهودية بربهم ووصفوه بأبشع الأوصاف وأبشعها.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾

[المائدة: ٦٤]

وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

[المائدة: ١٣، ١٤]

---

(١) راجع كتابنا: الإمام الشافعى فقيها ومحدثا.

وقال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[التوبة: ٣٠، ٣١]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]. كانت تلك حالة اليهود والنصارى.

كما كانت هناك الوثنية المتعددة التى أخذت من مظاهر الطبيعة ومن الأصنام ومن الأشخاص والحيوانات آلهة تعبدها من دون الله عز وجل.

وأما عرب الجزيرة فقد كانوا يعبدون الله بما بقى من دين اسماعيل عليه السلام ولطخوه بوثنيتهم التى صنعوها بأيديهم فعبدوا الأصنام والأوثان وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ وكاد ليل البشرية أن يطول وهى ترزح فى ظلام الكفر والشرك والوثنية والأقل من القليل من البشر حائرون. يرفضون بفطرتهم ما عليه جموع الناس. ولا يدرون ماذا يفعلون وإلى أى وجهة يتجهون. إن كثيرا من الأحبار والرهبان والقساوسة وسدنة المعابد والأوثان ضالون ومضلون.

وبينما النفر القليل يتطلعون إلى ظهور من يبدد لهم حيرتهم ويكشف للبشرية كلها عن معرفة المعبود وبيان حقيقة العبادة اللائقة به، وإذا بالفجر يبزغ ضوءه وشمس الضحى ترسل أشعتها الذهبية على أنحاء المعمورة.

وتنبأ المتنبئون بقرب ظهور نبى آخر الزمان وأخذوا يبشرون بذلك. وولد الأمل من جديد عند بعض الناس.

وكانت رحمة الله بعباده فى طريق الظهور. وإذا بالقادم على البشرية كلها:

سيد الأنام وناشر نور الحق ليبدد به الظلام ويقيم شريعة العدل والبر والإحسان. فكان سيدنا محمد ﷺ. الأمل المرجو والمفاجأة المبيدة لدعاة عبادة الطواغيت. فاستقبله الكون كله بالفرح والسرور والترحيب والإجلال.

ولما أتم الأربعين من عمره الشريف وفي ليلة القدر من شهر رمضان نزل عليه الوحي ليبلغه بتكليفه بالقيام برسالة ربه إلى أهل الأرض جميعا. فكان أول ما نزل من القرآن الكريم: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ - ٥]. ففي هذه الآيات ما يوحي بعالمية الدعوة. وأنها ليست للعرب خاصة بل هي للبشرية عامة. ولا يعترض عليه بمثل قوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾.

فهذا أمر طبيعي وعادي أن يبدأ بمن حوله لأنهم أعرف الناس به. وتصديقهم له سوف يكون دعوة لغيرهم للدخول في دين الله أفواجا وهو ما يؤيده الواقع ومسيرة الدعوة النورانية المحمدية.

إن مما خص به صلوات الله وسلامه عليه هو عالمية الدعوة فالإسلام للبشرية كلها في كل بقاع الأرض. وهو مما تميز به سيدنا رسول الله ﷺ على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة).

وفي القرآن الكريم عدة آيات تبين أن رسول الله ﷺ قد خصه الله عز وجل بعموم رسالته وعالمية دعوته. منها قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة

الثقلين. وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عن النبى ﷺ أنه قال: (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ولا يهودى ولا نصرانى ومات. ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار).

وقال الله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [المائدة: ١٩].

فلقد خاطب الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ خاتم النبيين الذى لا نبى بعده ولا رسول. بل هو المعقب لجميعهم ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾.

فالله عز وجل قد بعثه على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم.

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بنى إسرائيل) وفى رواية مسلم: «من أهل الكتاب».

إن الدين كان قد التبس على أهل الأرض جميعا حتى بعث الله تعالى رسوله المصطفى ﷺ فهدى به الثقلين.

وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور. وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿رحمة للبر والفاجر. لأن كل نبى إذا كُذّب أهلك الله من كذبه. ومحمد - ﷺ - أخرّ من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة فى الدنيا والآخرة).

وذكر القاضى عياض فى الشفا قال: قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمدا ﷺ بزينة الرحمة فكان كونه رحمة. وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق فمن أصابه شئ من رحمته فهو الناجى فى الدارين من كل مكروه. والواصل فيهما إلى كل محبوب. أ.هـ.

وقال نصر بن محمد السمرقندى: رحمة للعالمين يعنى الجن والإنس. وقيل: لجميع الخلق: للمؤمنين رحمة بالهداية. ورحمة للمنافق بالأمان من القتل. ورحمة للكافر بتأخير العذاب قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وروى البيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداه) (١).

وقال بعض العارفين: (الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة. ونبينا ﷺ عين الرحمة) (القسطلانى فى المواهب).

وقال الله عز وجل: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

فهذه الآية أيضا تدل على عموم رسالته ﷺ ﴿ **لِيَكُونَ** ﴾ أى القرآن الكريم أو محمد ﷺ ﴿ **لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ فرسول الله ﷺ منذر بما جاء به لكل من أعرض عن ذكر الله عز وجل والتصديق بنبوته ﷺ وقال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ: ٢٨].

إن كل إنسان وجد على ظهر الأرض منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة هو مطالب من ربه عز وجل أن يؤمن به ربا واحدا يعبده ولا يعبد سواه وأن يصدق بنبوة الرسول ﷺ. فكل البشر مخاطبون بالقرآن (يا أيها الناس) وقد

---

(١) ورواه الحاكم وصححه على شرطهما وأقره الذهبى.

تعددت فى القرآن الكريم ينادى على أمة الدعوة. ليؤمن من لم يؤمن. ويسلك الطريق القويم طريق التقوى من آمن وصدق بنبوة المصطفى ﷺ.

وروى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون) والرسول ﷺ هو النبى الخاتم فلا نبى بعده.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولا يقدح فى هذا نزول سيدنا عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ونزوله من علامات الساعة. لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه. ويدعو أمة للإيمان برسالة محمد ﷺ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وإنه لعلم للساعة).

وفى الصحيح (ينزل فيكم أخى عيسى حكما عدلا بينكم يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية حتى يفيض المال ولا يجد من يأخذه).

قال أبو حيان: ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع أو إلى أن الولى أفضل من النبى فهو زنديق يجب قتله والله أعلم. إن ما سبق يؤكد أن سيدنا رسول الله ﷺ قد بعثه الله سبحانه وتعالى للإنس والجن على السواء. وأن رسالته عامة. وعلى هذا أجمعت الأمة كلها. ولا ينكر هذا إلا جاهل بالإسلام أو حاقد عليه أو على النبى ﷺ.

كما روى عن طائفة العيسوية من اليهود – وهم أتباع عيسى الأصبهانى – أنهم قالوا: إن محمدا صادق مبعوث إلى العرب غير مبعوث إلى بنى إسرائيل.

وهذا القول باطل لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وبعض الناس من المتعالمين يرددون مثل هذا القول الذى قالت به هذه

الطائفة. فقد قرأنا لمن يقول: إن رسول الله ﷺ مبعوث إلى العرب خاصة وواجب عليهم اتباعه وما عدا العرب ممن سمع ببعثته مخير فى الإيمان به والعمل بشريعته.

وهذا القول ظاهر البطلان لما ذكرناه من صريح القرآن ومن صحيح السنة كما مر سلفا.

وصدق الله العظيم فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾.

● **منهجه ﷺ في الدعوة:**

يقصد بالمنهج: الطريقة والأسلوب والبشكل الذى كان يستخدمه ﷺ فى تبليغ دعوته السامية للبشرية تنفيذا لأمر ربه عز وجل: ﴿ **أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فمن هذه الآيات نستطيع أن نستخلص شروط الداعية كما يلى:

١- أن يكون الداعية ملما بموضوع الدعوة ومدركا لقضاياها والرسول ﷺ كان على علم تام بموضوع دعوته ومصدره فى ذلك ما يوحى الله به إليه.

﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ** ﴾ [النجم: ١ - ٥].

٢- أن يجيد لغة التخاطب: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾.

والرسول ﷺ كان قرشيا وقد نزل القرآن الكريم بلغة قريش من العرب وهى لغة أهل الجنة كما روى.

وواضح أنه ﷺ كان قادرا على تبليغ قومه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

٣ – أن يكون رحيما لينا مرنا فى مقاله بما لا يبعده عن قول الحق ولا يكون فظا غليظ القلب فينفض عنه الناس ويرفضون دعوته. وكذلك كان رسول الله ﷺ رحيما يستخدم اللين فى أسلوبه مما جعل العقلاء من الناس يؤمنون به ويصدقون برسالته.

٤ – أن يلتزم الحكمة. وهى وضع الأمور فى نصابها. وأن يستخدم الموعظة الحسنة فى بيانه.

ومن من الناس كان أكثر حكمة من رسول الله ﷺ وأقدر منه على الموعظة الحسنة؟

إنه رسول الله ﷺ الذى رباه ربه عز وجل وأدبه وعلمه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

٥ – أن لا يجادل فى آيات الله بغير علم. وأن يجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن. وغيرهم من المشركين عبدة الأصنام بالحجة والبرهان فى حسن وأدب حتى لا ينفرهم من دعوته. فإن آمنوا به وصدقوه فبها ونعمت. وإن لم يصدقوا به كان الباب مفتوحا أمامه وأمامهم للمراجعة والمحاورة والنقاش فى غير عصبية أو جمود. وذلك كان أسلوب رسول الله ﷺ. وقد أفلح عليه الصلاة والسلام فى ذلك وحقق نتائج عظيمة. يحنى التاريخ رأسه احتراما وتبجيلا للداعية.

٦ – أن يكون الداعية على خلق عظيم. يتحلى بمكارم الأخلاق وحميد الصفات وجميل الأفعال، ومن أعظم خلقا من رسول الله ﷺ الذى أثنى عليه المولى عز وجل فى قوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لقد كان خلقه القرآن ﷺ.

وأما منهج الداعية ﷺ وخطته فقد كانت كما يلى:

أولا: فى مكة المكرمة (المرحلة الأولى):

قام رسول الله ﷺ ليبلغ دعوة الله عز وجل لعباده فى مكة المكرمة ﴿**وأنذر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾.

لأنهم أعرف الناس به. لأن قد نشأ وتربى حتى بلغ سن الأربعين بينهم وتربطه بهم صلة الدم والنسب. مما يساعدهم على الإيمان بنبوته والتصديق برسالته لما يعرفونه عنه من الصدق والأمانة وكرم الخلق.

وكانت طريقته في الدعوة معهم ولهم تقوم على أساسين هما:

الأول: نبذ عبادة الأصنام وتفنيد آرائهم وعقيدتهم فيها. وبين لهم أنها عبادة شرك لله عز وجل. لأن الله وحده المخصوص بالعبادة ولا يتوجه العبد بأى لون من ألوان العبادة إلا لله وحده.

والثانى: دعوتهم للإيمان بوحدانية الله عز وجل والتصديق بنبوته ورسالته ﷺ. فإن من فعل ذلك فاز ونجا ومن أعرض عن ذلك فقد خسر خسرانا مبينا وتمسك ﷺ بما دعا إليه. فهددوه وساوموه وفرضوا عليه وعلى أهله وذويه وأصحابه الحصار فى شعب أبى طالب وقاطعوهم وضربوا وقتلوا بعض أصحابه فلم تخر له عزيمة ولم يضعف. وقام يعلنها صريحة (والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى حتى أترك هذا الأمر فلن أتركه حتى أبلغه أو أهلك دونه)[1] ولما رأى عمه منه هذا الإصرار وأبصر فيه هذه القوة وتلك الجرأة التى تبين عن عظمته ﷺ. فقال: (يا ابن أخى: امضى لما أمرك الله فوالله لا أسلمك إليهم أبدا). ووقف عمه بجواره يؤيده ويسانده حتى مات وفى مكة المكرمة عاش رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما قويا صلبا. ولم تخيفه مكة بشيوخها وشبابها ولكنه كان يعلنها دائما فى قوة وعزة وصلابة (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد).

---

(١) وفى رواية: حتى يظهره الله تعالى أو أهلك دونه.

فآمن به نفر قليل بمكة أكثرهم من أبناء سادتها وكبرائها: السيدة خديجة. أبو بكر الصديق. عثمان بن عفان. على بن أبى طالب سعد بن أبى وقاص. حمزة بن عبد المطلب. عمر بن الخطاب. الزبير بن العوام ومن على شاكلتهم رضى الله عنهم.

وكان رسول الله ﷺ يمكنه بمن معه أن يرفع السيف فى وجوه أعدائه بمكة ولكن لم يأذن الله له بقتال أهلها لأن الدعوة لم تزل فى مهدها وستكون عاقبة ذلك انصراف الناس.

وظل يدعو إلى ربه بمكة وما حولها ويتعرض للحجاج ويعرض عليهم دعوته. وكان عند الناس بمكة قناعة بصدقة وصدق ما جاء به ولكنه الحقد والحسد:

قال الله تعالى مؤكدا هذه الحقيقة: ﴿**فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾.

لقد كانوا يجحدونها رغم معرفتهم بها ولذلك لم يقل ﴿**ينكرون**﴾ ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾.

وظل حال الدعوة بمكة هكذا تمشى الهوينى حتى كانت الهجرة الشريفة إلى يثرب (المدينة المنورة) على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ثانيا: فى المدينة المنورة (المرحلة الأخيرة):

هاجر رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى يثرب (المدينة المنورة) بإذن ربه عز وجل ليجاهد فى تبليغ رسالته فى ميدان جديد بعد أن توقف المد الإسلامى بمكة. وأصبح الذين يدخلون فى الإسلام لشدة وطأة أهل مكة ووقوفهم فى وجه الدعوة ومضايقتهم للمسلمين وصدهم وإعراضهم عما جاء به رسول الله ﷺ.

وعلى مشارف يثرب كان اللقاء المرتقب بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه الذين سبقوه بالهجرة وأهل يثرب الكرام. وكان اللقاء عظيما وحميما تفجرت فيه المشاعر وتلاقت فيه الآمال وظهر فيه صدق أهل يثرب فيما وعدوا به المصطفى ﷺ.

وفى هذا المكان كان بناء المسجد وهو أول فعل يقدم عليه رسول الله ﷺ لأن المسجد هو المدرسة الأولى للإسلام وفيه تجسد العقيدة وفيه تحسن العبادة.

فكان بناء مسجد قباء ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

وبعد أيام من بناء مسجد قباء انتقل ﷺ والمهاجرون إلى المدينة حيث قدر الله تعالى له أن تكون إقامته إلى الانتقال إلى الرفيق الأعلى. وقد حقق الله تعالى للنبى ﷺ ما كان يصبوا إليه فلقد أصبحت المدينة – بعد خمولها – كخلية نحل لا تنقطع فيها الحركة وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

وقد اتخذ النبى ﷺ عدة إجراءات وسلك سبلا جديدة – هى امتداد لما كان قد بدأه بمكة – وذلك على النحو التالى:

(١) بناء مسجده الشريف ليكون مركزاً لنشر الدعوة ولتدار منه أمور الدولة الإسلامية الفتية التى بدأ ﷺ فى تأسيسها.

(٢) عقد معاهدة مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ليصهر أفراد المجتمع المسلم فى بوتقة واحدة وليقرب بين جناحى الأمة المهاجرين والأنصار حتى لا يكون بينهم تناقضات وليتحقق فيهم الانتماء الحقيقى للدولة الجديدة تحت رعاية رسول الله ﷺ.

وقد حدد فيها موقف اليهود والمشركين من الدولة وموقف الدولة منهما وتتكون وثيقة دستور دولة النبى ﷺ فى المدينة من إثنين وخمسين مادة. خص منها اليهود بخمس عشرة مادة.

ذكرت هذه الوثيقة فى سيرة ابن هشام وفى نهاية الأرب. وقد حققها محمد حميد الله الحيدر أبادى [1].

وسيدنا رسول الله ﷺ بهذه المعاهدة قد حدد المواقف لعناصر الدولة الجديدة (المسلمون واليهود والمشركون).

ثم إنه بذلك قد قطع الطريق على مكة فلن يكون لهم بالمدينة من يناصرهم أو يساعدهم فى الكيد للرسول ﷺ ولأصحابه وبذلك يكون قد أمن على الدولة المسلمة من حقد هؤلاء. ولم يبق أمامه سوى قريش وحدها.

(٣) ولما تم له ﷺ عقد هذه المعاهدة أخذ يعد الجيش الإسلامى القوى والقوات المسلحة هى الدرع الواقى للدولة من كيد أعدائها – ليكون دائما على استعداد للقاء العدو. إن فرض عليه العدو ذلك.

والقتال فى الشريعة الإسلامية شرع للدفاع عن العقيدة وعن النفس وحماية للعرض وصيانة للوطن. كما أنه شرع صونا للسلام وتثبيتا له. وليس للعدوان وسلب الحقوق.

قال الله عز وجل: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(٤) ولم توقف هذه الإجراءات رسول الله ﷺ عن مواصلة مسيرة الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ الرسالة المكلف بها، لقد كان يدعو إلى ربه هنا وهناك. ويعلم المسلمين أحكام الله تعالى وشريعته. وأخذ الوحى ينزل عليه بالسور والآيات المتتابعات بالأحكام والشرائع التى تبين العبادة وتحدد صيغ المعاملات وتفسر وتوضح نظام المعاملات والحقوق والواجبات وإدارة شئون الدولة وعلاقات الأفراد بها وعلاقتها بهم وشريعة الجهاد والحكم والقضاء وغير ذلك مما هو مبين فى كتب الفقه والشريعة.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة: ١٥ – ٢١ ط القاهرة.

(٥) إعلان الجهاد المسلح ضد المعتدين والمعارضين لقيام دولة الإسلام فوقعت سلسلة من المعارك والغزوات لم يبدأها رسول الله ﷺ والمسلمون. ولكن الأعداء هم الذين هيأوا أسبابها – فكانت – دائما – الدائرة عليهم بفضل الله تعالى ومعونته.

(٦) الانتقال بالدعوة من داخل المدينة المنورة إلى ما حولها من القبائل المختلفة والأمصار العديدة فتحركت الوفود من عند رسول الله ﷺ وأتته الوفود من جهات متعددة يعلنون إسلامهم وأقوامهم أو يعلنون حيادهم وعدم مناصرة أعداء الإسلام والمسلمين.

(٧) دعوة أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام ومحاورتهم وجدالهم بالتى هى أحسن: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولما تمرد أهل الكتاب (اليهود) ونقضوا العهد والميثاق أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة. وكانت تلك عاقبة أمرهم لأنهم لا عهد لهم ولا ذمة.

(٨) أخذ ﷺ يرسل الكتب والرسائل مع سفرائه ومندوبيه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها للدخول فى الإسلام وذلك فى العامين السادس والسابع بعد أن انهارت قوى العدو من اليهود وقريش. بقوة المسلمين أو بالمعاهد ت التى عقدت معهم. فلقد انتصر على اليهود فى العام الخامس من الهجرة ووقع صلح الحديبية مع قريش فى العام السادس. وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

لقد استمر إرسال هذه الكتب والرسائل التى صيغت بمنتهى الحكمة والبراعة. وكان الرسول ﷺ فيها سمحا يدعو ولا يهدد يخاطب الملوك والرؤساء بألقابهم ومكانتهم ويقرر لهم أن سلطانهم سيظل قائما فى ظل الإسلام. فهو لا يطلب ملكا ولا يطمع فى مغنم وإنما هو مرسل بأمر الله عز وجل. واستمر ذلك حتى وفاته ﷺ كما ذكره الطبرى فى تاريخه (٢ / ٦٤٥).

وكان على رأس من أرسل إليهم: هرقل ملك الروم. وكسرى عظيم فارس. والمقوقس عظيم مصر وزعيمها وإلى النجاشي ملك الحبشة وإلى ملكي عمان وأمير دمشق وملك البحرين وملك اليمامة وغيرهم من ملوك ورؤساء أهل الأرض.

وكان ﷺ يخاطب كلا منهم بما يسيق به لأن بعضهم كانوا من أهل الكتاب وبعضهم كان وثنيا.

روى الطبراني في التاريخ: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم [1]:

(إني بعثت رحمة للعالمين. وللناس كافة فأدوا عني يرحمكم الله).

وهكذا كان رسول الله ﷺ في المدينة المنورة داعيا إلى ربه عز وجل ومعلما ومربيا لجيل أثرى الحياة البشرية بالعطاء والإيمان والخلق الرفيع.

ولا عجب فهم الصحابة الكرام الذين استقبلوا عن الله من فيّ رسول الله ﷺ وعليهم تسطع أنواره المحمدية وترهف أسماعهم بصوته الندى الذي ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ويزكيهم ويعلمهم بما نزل به الوحي عليه السلام وتمس شغاف قلوبهم إشعاعاته النورانية في كلماته الإيمانية الأخاذة فتضطرب القلوب وتسكن الأفئدة وتلهج الألسنة بذكر الله عز وجل وتتعب الأجساد مجاهدة صابرة لكي تحظى بما أعده الله للمؤمنين المتقين في الدار الآخرة.

لقد جاهدوا صابرين. رهبان بالليل وفرسان بالنهار في ظل حياة دنيوية قاسية زادهم وزوادهم هو فضل الله وإحسانه يمتعهم في دنياهم رؤية الرسول ﷺ ومجالسته يبصرون بأنواره ويستنشقون ريحه وريحانه ويروون قلوبهم الظامئة بما يخرج من بين شفتيه وثنايا أسنانه. يغمرهم بحنانه ويعطف عليهم برحمته ورأفته ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ ﷺ حتى فارق الدنيا وهو عنهم راض. فحملوا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢ / ٦٤٥

أرواحهم على أكفهم وأسلحتهم على اكتافهم يسلكون سبيله ويعملون بصريقته حتى فتح الله عليهم البلاد والأمصار. وأخذت رايات الإسلام ترفرف فى شتى البقاع والأسقاع. فعاشوا كرماء وماتوا سعداء صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا.

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

رضى الله عنهم وأرضاهم ورزقنا محبتهم وحشرنا فى زمرتهم آمين ..

* * *

ثالثا: إقسام الله تعالى له تشريفا وتقديرا

لقد أقسم الله عز وجل فى آيات كثيرة لرسول الله ﷺ بيانا لقدره وعلو منزلته وشرفه، وتعظيما لخلقه وتحقيقا لرسالته وصدق نبوته وثبوت ما أوحى إليه من آياته وعلو رتبته ومكانته، ولله عز وجل أن يقسم بأمور على أمور. وإنما أقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه. ولكن ليس للعباد أن يقسموا إلا بالله عز وجل أو بصفة من صفاته أو باسم من أسمائه الحسنى أو بالقرآن الكريم لأنه كلام الله تعالى. والكلام صفه له روى فى الحديث. قال ﷺ: (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) وروى أيضا (من حلف بغير الله فقد أشرك) وجوز الحلف برسول الله ﷺ أبو حنيفة وأحمد بن حنبل ومنع الحلف به مالك والشافعى رضى الله عنهم قال الله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾

[الواقعة: ٧٥ – ٧٩]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يسَ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس: ١ – ٤].

وقال عز وجل: ﴿ **والذَّاريات ذرْواً * فَالْحاملات وقْراً * فَالجاريات يُسْرا * فالمُقسِّمات أمرا * إنَما تُوعدُون لصادقٌ * وَإنّ الدّين لَواقعٌ** ﴾

[الداريات: ١ - ٦]

ففي هذه الآيات. ذكر الله تعالى: ثلاثة أمور متلازمة. فمتى ثبت أن الرسول ﷺ حق. ثبت أن القرآن حق وثبت المعاد. ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول ﷺ الذى جاء به. ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق. ثبت صدق الرسول ﷺ الذى جاء به.

وأذكر فى هذا المقام بعض الآيات التى نزلت وفيها يقسم الله تعالى لحبيبه ﷺ بما يكشف لعباده عن علو مرتبة نبيه ورفعه شأنه ورفيع منزلته ومكانته.

(١) قسمه تعالى على ما خصه من الخلق العظيم:

قال الله تعالى: ﴿ **نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أنتَ بنعْمة ربّكَ بمجْنُون * وَإنّ لَكَ لأجْرًا غَيْر ممْنُونٍ * وَإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظيمٍ** ﴾ لقد أقسم الله حبيبه ﷺ بالكتاب وآلته وهى القلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه. وكتب به الوحى وقيد به الدين وأثبتت به الشريعة وكتب ما كان وما يكون وما هو كائن من قضاء الله وقدره على أن رسول الله ﷺ ليس مجنونا كما اتهمه أعداؤه وأن له أجرا عظيما وثوابا مستمرا غير منقطع لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى الله تعالى عليه بما منحه فقال: ﴿ **وَإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظيمٍ** ﴾ وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته.

سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن) (رواه أحمد ومسلم وأبو داود).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: معناه: على دين عظيم. لا دين أحب إلىّ ولا أرضى عندى منه وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضى الله عنه: هو آداب القرآن بدليل أن عائشة لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به ﷺ من أوامر الله وينتهى عنه من نهى الله تعالى والمعنى وإنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن. يقول العلامة الصاوى فى حاشيته على الجلالين وهذا أعظم مدح له ﷺ. ولذا قال العارف البوصيرى:

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم

هذا، ولقد أدبه ربه عز وجل ومنحه الخلق العظيم ثم هو يمن عليه بذلك إعلاء لشأنه وتشريفا له كونه قد وصف بما ربى عليه وأعطى له فحفظ المنحة وحافظ عليها والتزمها حتى صارت وصفا له يوصف به ويمدح به صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه.

(٢) قسمه تعالى على ما أنعم به عليه:

قال الله تعالى: ﴿**وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ...**﴾ السورة، لقد أقسم الله عز وجل بمتقابلين: ساعة من النهار اشتد فيها ضوء الشمس ضياء وساعة من الليل اشتد فيها ظلامه حتى تكاد أن تكون الرؤية فيها منعدمة.

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له ما يرضيه. فهو تصديق له ودليل على صحة نبوته وعلى جزائه فى الآخرة. أى أنه قسم على صحة النبوة وثبات المعاد لقد شمت به الأعداء عندما غاب عنه الوحى مدة فقالوا: ودع محمداً ربُه وهجره. فأقسم الله له وردا على أعدائه بالضحى والليل إذا سجى. بأن الوحى آتيه بنوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، فأنعم عليه بثلاث:

﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾.

ما تركك ربك يا محمد وما هجرك. ولقد أعد لك الأجر العظيم فى الآخرة

والثواب الذى لا ينقطع. وسيرضيك ربك فى نفسك وفى أهلك وذويك وفى أمتك.

سئل سيدنا على (زين العابدين) بن الحسين رضى الله عنهم عن أرجى آية فى كتاب الله تعالى فقال: (أرجى آية فى كتاب الله هى قوله تعالى: ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ فإن محمدا ﷺ لا يرضى حتى يخرج الله آخر أحد من أمته من النار).

ومعنى عدم رضاه: هو أن يستمر فى الشفاعة فى المذنبين ملحا وراجيا حتى يتوب الله عليهم ويخرجهم من النار وكل بقضاء وقدر.

وليس معنى عدم رضاه هو الرفض. فالرسول ﷺ يرضيه ما يرضى الله عز وجل. وسوف يرضيه المنعم عز وجل فى أمته ثم أقام ربنا دلائل ثلاثة على هذه النعم الثلاث فقال: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ ثم أمره سبحانه وتعالى أن يقابل هذه النعم بشكر المنعم عز وجل والقيام بما يحقق ذلك فنهاه عن ثلاث:

﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾

ثم يذكر رسوله ﷺ بأمور ثلاثة قد منحه إياها. ويزيد بذلك الأمر وضوحا ومنًّا وكرما وجودا وسخاء فقال سبحانه: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾.

فقلد أوتى رسول الله ﷺ العطاء قبل أن يطلبه من ربه عز وجل كما طلب موسى ﴿ **رب اشرح لى صدرى** ﴾ [طه: ٢٥].

وعصمناك عن فعل الذنوب والأوزار التى تثقل كهل فاعلها فعصمناك وزكيناك عطاء منا ونعمة أنعمنا بها عليك. ثم رفعنا شانك فى العالمين. فحيث أذكر تذكر معى فى الآذان وفى الخطبة وفى الصلاة. ولا تصح أى منها إذا لم تذكر.

لذا فاعلم وأعمل ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

إنه عطاء وأى عطاء إنه عطاء المنعم لحبيبه ورسوله ﷺ يعلى به شأنه ويرفع به قدره ويعلى به منزلته ويرفع به مكانه. ولا عجب. فهذا عطاء الحبيب لحبيبه إنه الحب كله ممن يملك كل شئ لحبيبه الذى أحب ربه عز وجل وأخذ يقدم فى خدمته كل شئ، حتى اشتد على نفسه وشدد عليها فرفق به مولاه فقال له ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ رفق وحنان من العلى الكبير برسوله ﷺ.

(٣) قسمه تعالى على تصديقه فيما أوحى إليه:

قال الله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ١٨].

أقسم الله تعالى على تنزيه رسوله ﷺ وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه واتهموه بارتكابه. من الضلال والغى واتباعه هواه. فشهد له ربه عز وجل بالبراءة من ذلك كله. وأثبت أن ما يقول به الرسول ﷺ إنما هو قرآن منزل أتى به الوحى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

وأقسم ربنا بالنجم وقد اختلف فى المعنى المراد به:

فقال ابن عباس: هو الثريا. وقال الحسن: هى النجوم التى ترمى بها الشياطين حتى لا يسترقوا السمع. وقال الكلبى: هو القرآن، وقال جعفر بن

محمد (الصادق) رضى الله عنه: هو محمد ﷺ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا نزل من السماء ليلة المعراج.

وفى قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ملحظ جميل لأن الله يقول لهم أليس محمد هذا هو صاحبكم الذين تعرفون أحواله وأوصافه وقد كنتم تصفونه قبل النبوة بأنه الصادق الأمين؟ فلم تبدلت أحوالكم وغيرتم فيه رأيكم؟ وهذا فيه تقريع لهم وقيام الحجة عليهم. إن الذى يتلوه عليكم محمد منزل عليه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ والسنة أيضا نزل عليه معناها ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وهما القرآن والسنة يقول الإمام الشافعى: سمعت من أثق به يقول الحكمة سنة رسول الله ﷺ.

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية قال (كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها).

وهذا قول حق. فمن الذى عرف رسول الله ﷺ بكيفية الصلاة ومواقيتها وعدد ركعاتها. وكذا غيرها من العبادات ممن لم يتعرض له القرآن بالتفصيل والتفسير. أليس ذلك أيضا مما يوحى به إليه ﷺ.

والقلب يصدق العين فيما رأت ولذلك يخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه. ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أن محمدا ﷺ «ما زاغ البصر وما طغى» فيما رأى من آيات ربه الكبرى فلم ينحرف بصره يمينا ولا شمالا. ولكنه كان دائما فى طريقه.

فالله عز وجل فى هذه الآيات قد أقسم على تزكية الرسول ﷺ فى عقله وفى فؤاده وفى بصره فهو صادق فيما يقول وفيما رأى وفيما سمع. ثابت القلب والعقل والعين.

ونكتفى بهذا فى الحديث عن القرآن الكريم وفيه كفاية لمن أراد النفع.

(٤) قسمه تعالى على تحقيق رسالته :

قال الله عز وجل : ﴿ **يسٓ * والْقُرْآن الْحَكيمِ* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلين* علَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تنزِيل الْعَزِيزِ الرَّحيمِ** ﴾ [يس : ١ - ٥] .

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى ﴿ **يسٓ** ﴾ على أقوال : فقيل معناها : يا إنسان بلغة طئ . وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير رضى الله عنهم ورسول الله ﷺ هو الإنسان الكامل الخالى من العيوب والأوزار خَلْقًا وخُلقًا .

وقيل : يا محمد . قاله ابن الحنفية (محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما) والضحاك .

وقال أبو العالية : معناها : يا رجل

وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن .

وقال أبو بكر الوراق : معناها : يا سيد البشر .

وعن جعفر الصادق رضى الله عنه قال : أنه أراد يا سيد . مخاطبة للنبى ﷺ . وفيه من تعظيمه وتمجيده مالا يخفى وعن طلحة عن ابن عباس : أنه قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه .

وعن كعب : أقسم الله به قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام : يا محمد إنك لمن المرسلين (١) .

وخلاصة هذه الأقوال أن ﴿ **يسٓ** ﴾ إما اسم لرسول الله ﷺ أو وصف له . وفى كلا الحالين هو قسم برسول الله ﷺ وبكتابه أنه لمن المرسلين . وهو رد على الكافرين حيث قالوا : ﴿ **لَسْتَ مُرْسَلاً** ﴾ [الرعد : ٤٣] .

فأقسم الله به – اسما أوصفة – وبكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده . وعلى طريق مستقيم أى لا عوج فيه ولا اعتداء على الحق ولا عدول عنه .

---

(١) ذكر هذه الأقوال القسطلانى فى المواهب ٣ / ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا له صلى الله عليه وسلم.

ولا يخفى علينا ما فيه من الدلاله على رفعة قدر النبى ﷺ وعلو شأنه.

(٥) قسمه تعالى بعمره وبعصره وبلده:

لقد أقسم الله تعالى بحياته فقال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر: ٧٢].

أى وحياتيك يا محمد. وفى هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس رضى الله عنهما:

(ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال الله تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا إنهم لفى سكرتهم يعمهون) (رواه ابن جرير) وروى نحوه البغوى فى تفسيره.

ويبرز هنا سؤال هو: هل يجوز الحلف برسول الله ﷺ؟

والجواب: جوز ذلك أبو حنيفة وأحمد. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبى ﷺ ينعقد به يمينه ويجب الكفارة بالحنث. واحتج بكونه ﷺ أحد ركنى الشهادة وأجازه من المالكية القرطبى وقال: وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه. فإنما أراد بيان التصريح لنا. أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته وقال ابن خويز منداد: واستدل من جوز الحلف به ﷺ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا خاصم أحدهم صاحبه قال له: احلف لى بحق ما حواه صاحب هذا القبر أو بحق ساكن هذا القبر يعنى النبى ﷺ.

وذهب الإمامان مالك والشافعى إلى أن الحلف بالرسول ﷺ لا ينعقد به

اليمين. لأن الحلف لا يكون إلا بالله تعالى. ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه لكن ليس للعباد أن يحلفوا إلا بالله عز وجل.

وأقسم ربنا عز وجل ببلده فقال: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ [البلد: ١، ٢].

أقسم تعالى بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى بلده ﷺ وقيده بحلوله ﷺ فيه إظهارا لمزيد فضله وإشعارا بأن شرف المكان بشرف أهله [١] أ. هـ ﴿ **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** ﴾ [البلد: ٣].

ثم أقسم بالوالد وما ولد. وهو فيما قيل: ابراهيم واسماعيل ﴿ **وَمَا وَلَدَ** ﴾: محمد ﷺ. وقيل: غير ذلك.

وعلى هذا الرأى يكون الله عز وجل قد أقسم ببلده وأقسم به ﷺ.

وروى أن الإمام أحمد قال فى معنى الآيات: لا أقسم ببلد أنت فيه لأن الجدير بأن يقسم به هو أنت.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء. ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ رواه القسطلانى فى المواهب.

وأقسم ربنا عز وجل بعصره ﷺ فقال: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾.

قيل: العصر هر الدهر. وقيل هو العمر.

وقال الإمان فخر الدين الرازى والبيضاوى وغيرهما: إن الله تعالى أقسم بزمان رسول الله ﷺ وقال الإمام الرازى: واحتجوا بقوله ﷺ: (إنما مثلى ومثل من

---

(١) ذكره البيضاوى فى تفسير السورة.

كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لى من الفجر إلى الظهر بقيراط. فعملت اليهود ثم قال: من يعمل لى من الظهر إلى العصر بقيراط فعملت النصارى ثم قال: من يعمل لى من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل أجرا. فقال الله تعالى: وهل نقصت من أجركم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلى أوتيه من أشاء. فكنتم أقل عملا وأكثر أجرا) (رواه البخارى عن ابن عمر).

فإذا كان عصره أكثر فضلا وعصره ظرف له فما بالك بالمظروف؟ فحتما يكون أكثر فضلا من ظرفه. ولذا بين لهم أنهم فى خسارة إذا أعرضوا عن دعوته ﷺ.

* * *

رابعا: وصفه بالنور والسراج المنير

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وصف الله عز وجل رسوله ﷺ بأنه نور وقيل: (نور) هو القرآن الكريم.

وأقول: ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ إذا كانت الواو للعطف. والعطف يقتضى المغايرة. أى أن ما بعد الواو يكون غير ما قبلها من حيث المعنى. فيكون (نور) هو الرسول ﷺ أما إذا كانت الواو للتفسير والبيان فيكون ما بعد الواو مفسر ومبين لما قبلها. ومعنى هذا أن المعنى المراد من (نور) يكون هو القرآن الكريم.

وسواء كان المعنى الأول هو الصحيح أو المعنى الثانى. فتكون عطيتنا وهديتنا من الله عز وجل نور يضئ لنا الطريق ويبدد ظلام الجهل والكفر والطغيان فرسول الله ﷺ هو لنا هبة وعطاء من الله تعالى لأنه رحمة الله للعالمين ونور من الله تعالى يضئ الطريق للسالكين ويبدد ظلام الحيرة ويهدى الضالين إلى طريق الحق المبين.

والقرآن الكريم أيضا هو منحة من العلى الكبير لأمة المصطفى البشير ﷺ.

وعلى كل حال أقول: إن النور لا يأتى إلا بالنور والنور لا يأتى به إلا نور فرسول الله ﷺ نور قد جاءنا بالنور والقرآن نور تنزل على النور المحمدى نور على نور والله يهدى لنوره وبنوره من يشاء سبحانه وتعالى فهو نور السموات والأرض نور أزلى أبدى سرمدى صمدى قدسى أحدى لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير جلت صفاته وتقدست أسماؤه وهو الكبير المتعال.

وقال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال القاضى عياض: جمع الله تعالى فى هذه الآية ضروبا من رتب الأُثْرَة – المكرمة – وجملة أوصاف من المدحة. فجعله شاهدا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة. وهى من خصائصه ﷺ. ومبشرا لأهل طاعته. ونذيرا لأهل معصيته وداعيا إلى توحيده وعبادته. وسراجا منيرا يهتدى به للحق. أ. هـ.

وروى البخارى عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ قال: (أجل. والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾ وحرزا للأميين. أنت عبدى ورسولى. سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ. ولا صخاب فى الأسواق. ولا يدفع بالسيئة السيئة. ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملك العوجاء. بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما. وقلوبا غلفا).

وروى الطبرانى وأبو نعيم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفته فى التوراة: (عبدى أحمد المختار. مولده بمكة. ومهاجره المدينة. أو قال: طيبة. أمته الحمادون لله على كل حال).

وقال الإمام القسطلانى فى المواهب [1]:

---

(١) المواهب اللدنية ٣/٢١٧، ٢١٨

والمراد: كونه هاديا مبينا كالسراج الذى يرى الطريق ويبين الهدى والرشاد. فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس. فكما أن الشمس فى عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها. فكذا نفس النبى ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية. ولذلك وصف الله الشمس بانها سراج حيث قال: ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٦١].

وكما وصف الله رسوله بأنه نور. وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور: ٣٥].

فليس فيهما نور إلا الله ونور القدسى. هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال. وهو الذى أشرق على العوالم الروحانية وهم الملائكة: فصارت سرجا منيرة. يستمد منها من هو دونها بجود الله تعالى. ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية. ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم فليس فى الوجود إلا نور الله – تعالى – السارى إلى الشئ منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه. أ.هـ.

وأقول: قال الله تعالى ﴿ **يا أيها النبى** ﴾ نداء من العلى الكبير لنبيه ﷺ. والنداء من الله تعالى لأحبابه. فيه الحنان والعطف والرحمة والمدد الإلهى ﴿ **إنا أرسلناك** ﴾ أى نحن قد بعثناك برسالتنا وهدايتنا إلى عبادنا وكلفناك بذلك التكليف الذى يجب عليك آداؤه ﴿ **شاهدا** ﴾ لنفسك بأنك قد بلغت رسالتك. وعلى أمتك فى الدنيا رائيا ومبصرا ومعلما وفى الآخرة عند ربك عز وجل ﴿ **ومبشرا** ﴾ للمؤمنين الصابرين الذين أحسنوا التوكل على ربهم وفوضوا الأمر له سبحانه وتعالى ﴿ **ونذيرا** ﴾ للكافرين والمشركين والعاصين بعقاب الله وعذابه الأليم. ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه** ﴾ مبلغا عن الله تعالى بأمره وليس من تلقاء نفسك لأن كل مبلغ عن الله تعالى لا يقوم بالبلاغ إلا بأمر ربه ويقدم للناس ما أمر بتبليغه لهم من أوامر الله عز وجل ونواهيه.

﴿وسراجا منيرا﴾ لقد شبه الله عز وجل نبيه المصطفى ﷺ بالقمرين ﴿الشمس والقمر﴾ حيث خلع عليه وصفيهما فالسراج وصف للشمس والمنير وصف للقمر.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

فشبهه بالشمس فى إرسال ضوئها على كل أهل الأرض لعموم رسالته وكونه رحمة للعالمين وستعرف دعوته فى كل بقاع الأرض وأعتقد أنه الآن قد عرفت دعوته فى كل مكان فى الأرض وبخاصة بعد ظهور أجهزة الاتصالات الاللكترونية وسعة انتشارها وشبه بالقمر لأنه بدعوته إلى ربه يبدد ظلام الكفر والضلال ويهدى الحائرين إلى الطريق المستقيم كما يبدد نور القمر ظلام الليل البهيم.

فهو ﷺ كالشمس فى إرسال ضوئها وحرارتها الأمر الذى يجب معه التحلى بالصبر وتحمل لمشاق.

وهو كالقمر فى إزاحة ظلام ليل الكفر والشرك. ونور القمر منعدم الحرارة وفيه لين. وهو أيضا ما يوجب عليه ﷺ – رغم تحمله أعباء الدعوة ومشاقها – أن يكون لينا هينا متواضعا ليس بفظ ولا غليظ القلب قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وقال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنه صلوات الله وسلامه عليه نور من ربه عز وجل وجاء بالنور من أمر ربه سبحانه وتعالى ليودعه قلوب من أراد الله تعالى هدايتهم وإيمانهم. فانعكس نور النبوة

على صفحات قلوب الراشدين من عباد الله فتولد عنه نور الإيمان بالله الواحد القهار والتصديق بنبوة المصطفى المختار ﷺ نور على نور والله يهدى لنورة من يشاء. إنه الفعال لما يريد. المنعم المتفضل على أنبيائه وأوليائه والمؤمنين به بنعمته الكبرى نعمة الإيمان والإسلام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

خامسا: وصفة بالعبودية

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال الله تعالى: ﴿ **إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ..** ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...** ﴾ [الإسراء: ١].

وقال عز وجل: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ...** ﴾ [الكهف: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

وقال عز وجل: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ...** ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال تعالى: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...** ﴾ [الحديد: ٩].

العبادة: اسم جامع لكل معانى الخير. ولا يتوجه العبد بالعبادة التى شرعها

الله تعالى من أوامر ونواهى إلا لله وحده لا شريك له. فكل عمل لا يبتغى العبد به وجه الله عز وجل فهو مردود عليه لأنه إذا انتفى الإخلاص فى العبادة دخلها الشرك والرياء والنفاق لضياع التقوى منها ﴿ **إنَّما يتقبَّلُ الله من المتَّقِين** ﴾ ﴿ **ألا لله الدِّينُ الخالصُ** ﴾.

فالعبادة الحقة ما ابتغى بها وجه الله تعالى. ووافق شرع رسول الله ﷺ. لأن الشأن فى العبد أن يكون لسيده قلبا وقالبا منفذا لأوامره ومراعيا لنواهيه بتقوى وإحسان ﴿ **إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾.

والعبودية لله تعالى تشريف للعبد ورحمة وإحسان لذلك كانت أشرف المقامات. لأنها مقام قرب ومحبة قال ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء).

فهذه تسع آيات فى تسع سور قرآنية يصف الله عز وجل فيها نبيه ﷺ بالعبودية.

وقد جاءت كلها فى التأكد والتثبيت على أن القرآن الكريم أنزله الله تعالى على عبده محمد ﷺ ودفاعا عن النبى ﷺ وإعلام حمايته وتنزيهه تعالى عن أن يتخذ ولدا لأن الكل عبيده مهما علا قدرهم وعلت مكانتهم.

وقد وصف الله عز وجل نبيه ﷺ بالعبودية لأمور خمسة هى:

(١) حتى لا تضل أمته كما ضلت اليهود والنصارى من قبل عندما أعطوا بعض أنبيائهم من الإطراء وخلعوا عليهم أوصافا إلهية والعياذ بالله تعالى.

(٢) رحمة من الله بأمته ﷺ لكى يكونوا على معرفة تامة وإدراك كامل بمقام الألوهية. فلا يمنحوا مالله تعالى لأى عبد من عبيده ولو كان سيد البشر ﷺ. ولذلك وصفه بالعبودية فى مقام المن والعطاء وعند الأمر العظيم.

(٣) فى انتساب المخلوق لخالقه عز وجل تشريف له ورفعة لقدره، جاء فى

بعض روايات حديث المعراج كم قال البرهان النسفى: قال الله عز وجل" : بم أشرفك يا محمد.

قال: تشرفنى بالانتساب بالعبودية لك فنزلت أول الإسراء وهذا فيه ما فيه من العطف والحنان والإحسان من المعبود سبحانه وتعالى للعبد.

(٤) العبودية مقام قرب بين العبد وسيده لأن العبد يكون أقرب من غيره لسيده. وهذا فيه خير كثير وفضل عميم.

(٥) ودائما يكون العبد فى حماية ورعاية سيده لأنه ملك له لهذا كله خلع ربنا عز وجل على حبيبه ﷺ صفة العبودية (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) يقدم الرسول ﷺ العبودية على الرسالة فالرسالة بمعنى التبليغ تتوقف عند الانتقال للرفيق الأعلى ولكن الرسالة بمعنى الاصطفاء والاختيار والشفاعة فهى باقية كما أن العبودية ما تزال مستمرة وباقية فى البرزخ وفى القيامة وفى العرض للشهادة على أمته والأمم التى سبقت. وفى الفردوس الأعلى من الجنة فيسعد وتسعد به أمته سعادة أبدية كما سعدت به فى الدنيا سعادة تكليفية زكية نقية. وطهارة روحية نورانية. وعبادة سامية أسجدت قلوب أمته لله العلى الكبير فكانوا فى حضرته سعداء وفى معيته شرفاء كرماء ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾.

فأى قدر وأى شرف يلقاه المرء إذا لم يكن عابداً لمولاه ومنقادا لخالقه المنعم عليه بأجل النعم؟.

فالعبودية الحقة تكليف وتشريف وفضل وإحسان وحنان ونعيم فى الآخرة ورضوان. وهذا عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا.

قال الطوفى رحمه الله تعالى: والسبب فى ذلك: أن الإلهية والسيادة والربوبية إنما هى فى الحقيقة لله عز وجل لا غيره. والعبودية لمن دونه فإذا كان فى مقام العبودية فهو فى رتبته الحقيقية والرتب الحقيقية أشرف المقامات إذ ليس بعد الحقيقة إلا المجاز ولا بعد الحق إلا الضلال.

وقال أبو حفص النيسابورى رحمه الله تعالى: العبد هو القائم بأوامر الله سيده على حد النشاط حيث جعله محل أمره.

وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى: العبد الذى لا ملك له.

وقال الجريرى: العبد هو الذى يتخلق بأخلاق ربه.

وقال رديم رحمه الله تعالى: يتحقق العبد بالعبودية إذا سلم القياد من نفسه إلى ربه وتبرأ من حوله وقوته وعلم أن الكل له وبه . أ . هـ.

فوصفه ﷺ بالعبودية تشريف له على الحقيقة لأنه عليه الصلاة والسلام كان أعرف الناس بربه وأكثرهم انقياداً لمولاة وأعظمهم استسلاما له متبرئا من حوله وقوته لقد خيره ربه عز وجل أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا. فاختار أن يكون نبيا عبدا كما روى فى الحديث. لذلك شرف بإطلاق هذا الوصف عليه ﷺ لأنه عبد تام العبودية. وعابد كامل العبادة فكان عبدا وعابدا على الحقيقة والكمال. فكان له من الله تعالى الثناء الجميل والامتنان العظيم ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾.

وكنت قديما أطلب الوصل منهم ... فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلب له ... فإن قربوا فضل وإن أبعدوا عدل
وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم ... وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

* * *

سادسا: خصوصيته فى النداء

النداء من الله العلى الكبير لأنبيائه وأوليائه والمؤمنين من عباده، نداء تكليف وتشريف وفيه العطف والرحمة والحنان.

ولقد كان النداء الإلهى لأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم وليس بصفاتهم.

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود: ٤٦].

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ٧٦].

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦].

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

ولم ينادى المولى عز وجل على أى نبى منهم وغيرهم بصفته إلا رسوله سيدنا محمد ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل ١، ٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١، ٢].

فى النداء بالصفة والوظيفة زيادة فى المعنى. ويستفاد من ذلك تقديم الرسول ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين وسيادته لهم والسيد هو الشريف المقدم.

وهذا التشريف والتفضيل من الله تعالى وليس من أحد سواه لأننا نحن أمته لا نفرق بين أحد من رسله ولا نملك ذلك. وهذا من عقيدتنا. ولكنا نؤمن بفضل من فضله الله تعالى وشرفه وكرمه، هذا وقد أنزل الله تعالى أسمه فى القرآن مجردا من النداء ومؤكدا على رسالته. وختمه للنبوات وصدقه فى التبليغ عن ربه.

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

[آل عمران: ١٤٤]

وقال عز وجل: ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

[محمد: ٢]

وقال الله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال سبحانة وتعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

[الصف: ٦]

حمدا لك يارب على ما أوليت به نبينا ﷺ بالمزيد من الفضل والإنعام وصلى اللهم ربنا عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم تسليما كثيرا.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى (١):

ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية. ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التى لا تشعر بوصف من الأوصاف. ولا يخلق من الأخلاق أن منزله من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم. وهذا معلوم بالعرف. أن من دعى بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. أ هـ وصدق الله العظيم. قال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ يعنى: موسى عليه السلام كلمة بلا واسطة.

(ورفع بعضهم درجات) يعنى: محمدا ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة

---

(١) المواهب اللدنية: ٣/١٤٤، ١٤٥.

أوجه: بالذات فى المعراج – وبالسيادة على جميع البشر وبالمعجزات. لأنه ﷺ أوتى من المعجزات ما لم يؤته نبى قبله قال الزمخشرى: وفى هذا الإيهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره مالا يخفى لما فيه من الشهادة. على أنه العلم الذى لا يشتبه والمتميزالذى لا يلتبس أ.هـ صلى الله عليه وسلم.

* * *

سابعا: ميثاق النبيين

قال الله تعالى: ﴿ **وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق النَّبيّينَ لمَا آتَيْتُكُم مّن كتاب وحكمة ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُصدّقٌ لّما معَكُم لتؤمنُنَّ به ولَتنصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرتم وأَخذتُم عَلَىٰ ذَلكُمْ إصْري قَالُوا أَقْرَرْنَا قَال فَاشْهَدُوا وأَنَا معَكُم مّن الشَّاهدين** ﴾ [آل عمران: ٨١] لقد أخذ الله الميثاق – كما أخبر – على كل نبى بعثه من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا.

وقيل: أخذه عليهم وعلى أممهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم عن على ابن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما:

(مابعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه) وقيل: إن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – كانوا يأخذون الميثاق على أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ وأدركوه أن يؤمنوا به وأن ينصروه.

فالأنبياء والرسل آمنوا به وصدقوه وهم فى عالم الأرواح أو أن كل نبى آمن به عند بعثته وأخذ الله منه الميثاق عند بعثته؟ قيل بهذا وذاك. والأرجح الأول. ونظيره قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَني آدَمَ من ظُهُورهمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَىٰ أَنفُسهمْ أَلَسْتُ بربّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقيَامَة إنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافلينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقال الإمام تقى الدين السبكى الشافعى رحمه الله تعالى [1]:

إنه ﷺ على تقرير مجيئهم فى زمانه. يكون مرسلا إليهم. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة. وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته.. ويكون قوله ﷺ (وبعثت إلى الناس كافة) لا يختص به الناس فى زمانه إلى يوم القيامة. بل يتناول من قبلهم أيضا وإنما أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المتقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم.

وفى أخذ المواثيق - وهى فى معنى الاستخلاف. ولذلك دخلت (لام) القسم فى (لتؤمنن به ولتنصرنه).

لطيفة: وهى أنها كأيمان البيعة التى تؤخذ للخلفاء ولعل أيمان الخلفاء أخذت من هنا.

فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبى ﷺ من ربه تعالى. فإذا عرف هذا. فالنبى محمد ﷺ نبى الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك فى الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه. وفى الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم. ولو اتفق مجيئه فى زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته. وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم. فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم فى حياتهم. وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه. فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل. فهاهنا لا توقف من جهة الفاعل. ولا من ذات النبى ﷺ الشريفة. وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه. فلو وجد فى عصرهم لزمهم اتباعه بلاشك ولهذا يأتى عيسى عليه السلام فى آخر الزمان على شريعته وهو نبى كريم على حاله. لا كما يظن بعض الناس أنه يأتى واحدا من هذه الأمة. نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبى ﷺ. وإنما

---

(١) المواهب اللدنية ٣/ ١٤٩ - ١٥١.

يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة. وكل ما فيها من أمر ونهى، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة. وهو نبى كريم على حاله لم ينقص منه شىء.

وكذلك لو بعث النبى ﷺ فى زمانه أو فى زمان موسى وابراهيم ونوح وآدم – عليهم السلام – كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم. والنبى ﷺ نبى عليهم ورسول إلى جميعهم – فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم وتتفق مع شرائعهم فى الأصول. لأنها لا تختلف. وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع إما على سبيل التخصيص. وإما على سبيل النسخ أو لا نسخ ولا تخصيص. بل تكون شريعة النبى ﷺ فى تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم. وفى هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة الشريفة والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات. وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا.

أحدهما: قوله ﷺ (بعثت إلى الناس كافة) (١) كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة. فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثانى: قوله ﷺ (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) (٢) كما نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين مابعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم لو تأهلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل. وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فها هنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذى يخاطبهم بلسانه.

وهذا كما يوكل الأب رجلا فى تزويج ابنته إذا وجدت كفئًا فالتوكيل

---

(١) رواه البخارى فى الصحيحين.

(٢) رواه أحمد والبخارى فى التاريخ وأبو نعيم.

صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة ووكالته ثابتة. وقد توقف التصرف علي وجود الكفء. ولايوجد إلا بعد مدة. وذلك لا يقدح فى صحة الوكالة وأهلية الوكيل، انتهى.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] إن هذه الآية تبين لنا عظمة الرسول ﷺ ورفعة شأنه وعلو منزلته. لقد ذكره الله تعالى فى جملة النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ثم خص أولى العزم منهم بالذكر، فذكره ﷺ فى أولهم مقدما عليهم رغم تأخره فى الوجود الجسدى عنهم. كما أنه عز وجل ذكر أولى العزم بأسمائهم أما سيدنا محمد ﷺ فقد ذكره بضمير المخاطب. وقد قال أهل اللغة الضمائر أعرف المعارف بعد لفظ الجلالة كما ذكر عن سيبويه رحمه الله تعالى.

وهكذا يبرز الله عز وجل لعباده جميعاً قدر النبى ﷺ وشرفه وعظمته وتقدمه على سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين قبل الوجود الجسدى وبعد ظهوره وفى البرزخ وفى يوم القيامة وفى الجنة صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

* * *

ثامنا: عفا الله عنك

قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال العلماء من المفسرين وعلماء العقيدة وغيرهم: إن هذا عتاب من الله عز وجل لنبيه ﷺ. وقد أخبره بالعفو قبل أن يساله عن الذنب.

روى ابن أبى حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

وقال مثله: مورق العجلى من علماء التابعين ثقة عابد وقال مثله غيرهما من العلماء.

وأقول: ليس فى الأمر ذنب يترتب عليه عفو ومغفرة. وإنما الآية جاءت جريا على عادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم يقول الرجل للرجل: عفاك الله يا أخى ماتقول فى هذا لأمر؟ ورضى الله عنك ماذا تفعل فى كذا؟

قال القشيرى رحمه الله تعالى: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لايعرف كلام العرب. قال: ومعنى عفا الله عنك. أى لم يلزمك ذنبا.

فليس فى الأمر ذنب عاتب الله عز وجل نبيه ﷺ عليه. وإنما هو حكم وتوجيه وتعليم لرسول الله ﷺ والمعنى: لا تأذن لأحد بالتخلف عن الجهاد إلا من تبين لك عدم أهليته لذلك فهو صادق فى اعتذاره وإلا فلا. ولذلك يقول الله عز وجل لنبيه فى الآيات التى بعدها ﴿ **لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ** ﴾ (١).

وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿ **فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ** ﴾ ففوض الأمر الى رأيه ﷺ أ.هـ.

فليس فى الأمر عتاب ولا ذنب. وإنما الأمر. أمر تشريع وتوجيه وحنان ورأفة من الحبيب عز وجل لحبيبه ﷺ.

ولذا نزل قول ربنا عز وجل هكذا: (عفا عنك) فلا يستلزم أبدا أن يكون

---

(١) اقرأ الآيات من ٤١ – ٥١ من سورة التوبة وتدبر فلن تجد فى الأمر عتابا ولا ذنبا.

العفو صادرا عن ذنب. وإنما كانت طريقة العرب وأسلوب من أساليب مخاطبتهم بما يدل على رأفة وحنو المتكلم بالمخاطب. والله أعلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله عز وجل: ﴿ **وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ** ﴾.

فلم يقع من رسول الله ﷺ ذنب ولا وزر لا قبل الرسالة ولابعدها.

وقد قال ربنا عز وجل ذلك فى مقام المن على رسول لله ﷺ بحمايته عن أن يقع فى الذنب الذى يوجب الاستغفار وذلك بعصمته. والعصمة نعمة ورحمة من الله تعالى لأنبياء حتى لا يرتكبوا أوزارا وآثاما مالم يكونوا معصومين فيجوز أن تحدث منهم. ولكنهم بعصمة الله لهم بالنبوة وبالرسالة لم يتأتى ذلك منهم فالمقام مقام منّ وعطاء يستوجب الشكر لله تعالى عليه ولذلك قال له: ﴿ **ويتم نعمته عليك** ﴾ وقال له ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ حتى لايتوهم متوهم أن النبى ﷺ قد وقع فى الذنب ثم غفره الله له.

فكيف يقع فى الذنب. وقد أرسل للناس ينهاهم عن فعله؟ ألا يكون ذلك مانعا من اتباع الناس له؟

وقال الله تعالى: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ** ﴾ [عبس ١-٤].

قال القاضى عياض فى الشفا [١]:

وأما قوله تعالى: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآيات. فليس فيها إثبات ذنب له ﷺ. بل إعلام الله له أن ذلك المتصدى له ممن لا يتزكى. وأن الصواب والأولىٰ كان لو كشف له حال الرجلين. لاختار الإقبال على الأعمى. وفعل النبى ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله وتبليغا عنه.

---

(١) وذكره أيضا القسطلانى فى المواهب ٣/ ٢٥٤، ٢٥٥.

واستئلافا له. كما شرعه الله. لا معصية ولا مخالفة له وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين. وتوهين أمر الكافر عنده. والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله ﴿ **وما عليك ألا يزكى** ﴾ أى ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام. أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عمن أسلم بالاشتغال بدعوتهم إذ عليك إلا البلاغ.

وقد كان ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - يستحق التأديب والزجر لأنه - وإن فقد بصره - كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار وكان يعرف باستماع تلك الكلمات شدة اهتمامه ﷺ بشأنه. فكان إقدامه على قطع كلامه ﷺ إيذاء له ﷺ وذلك معصية عظيمة. فثبت أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنبا ومعصية. وأن الذى فعله الرسول ﷺ. كان هو الواجب المتعين وقد كان ﷺ مأذونا له فى تأديب أصحابه ولكن ابن أم مكتوم بسبب عماه استحق مزيد الرفق به. أ.هـ. وأقول: لم يفعل سيدنا رسول الله ﷺ ذنبا ولا وزرا بل إنه كان مشغولا بطاعة ربه عز وجل بتبليغ دعوته إلى هؤلاء الذين قدموا عليه وتربطهم به علاقة دم ونسب وقد كان طامعا فى إيمانهم برسالته لأن إيمانهم سيكون دافعا لا ستسلام غيرهم للدعوة. وجاء ابن أم مكتوم رضى الله عنه وسمع كلام النبى ﷺ معهم. فقطع على النبى ﷺ حديثه وهذا مرفوض أدبا وخلقا وخصوصا مع النبى ﷺ. وكان على النبى ﷺ أن يؤدبه وهو مأمور بتأديب أصحابه ولقد أدب الله تعالى بالمدينة من هو خير من ابن أم مكتوم. أدب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما عندما اختلفا فى الرأى وارتفع صوتيهما فى حضرته صلى ﷺ فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ..** ﴾ الآية من سورة الحجرات ولكن النبى ﷺ أدب عبد الله بن أم مكتوم بما يؤدب به أصحابه. ولكن كان فى أدبه له بمثل ما يؤدب سائر الصحابة أمر زائد لكونه أعمى ويحتاج إلى الرفق فى تأديبه.

فالمذنب هو ابن أم مكتوم رضى الله عنه ولذلك ذكره الله فى الآيات

المذكورة بضره ولم يذكره بصفة أخرى أو بأسمه ويعذر الله تعالى نبيه ﷺ فى قوله ﴿ **وما يدريك لعله يزكى** ﴾ أى وما يدريك أن الكافر الذى تتحدث معه جاء للتزكية إن عليك إلا البلاغ ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾.

وقد جاء الكلام فى السورة بضمير الغيبة ﴿ **عبس وتولى** ﴾ عطفا على رسول الله ﷺ. لذلك لم ينزله عليه بضمير المخاطب.

وأمر آخر لقد نزلت سورة (عبس) بعد سورة (ن) وفى الثانية ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ فهل يتصور عاقل أن يثنى عليه ربه عز وجل فى سورة والتى تنزل بعدها يقدر عليه ذنبا ويعاتبه على فعله؟ إن هذا بعيد جدا.

وقال الله تعالى: ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [الانفال: ٦٧ - ٦٩].

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر. وقتل منهم سبعون وأسر سبعون. استشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليا. فقال أبوبكر: يانبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان. وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية. فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا. فقال رسول الله ﷺ: ماترى يا ابن الخطاب؟

قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر. ولكنى أرى أن تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه. وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه. حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر. ولم يهو ما قلت. فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد. غدوت إلى رسول الله ﷺ. فإذا هو قاعد وأبوبكر الصديق. وهما يبكيان. فقلت: يارسول الله: أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك. فإن

وجدت بكاء. بكيت. وإن لم أجد تباكيت فقال النبى ﷺ: أبكى للذى عرض على أصحابك عن الفداء. لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة. لشجرة قريبة. فأنزل الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ رواه مسلم إن قول الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى ما كان لنبى قبلك يامحمد أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر وأهله ويقل حزبه. ويعز الإسلام ويستولى أهله فليس فى هذا إثبات ذنب للنبى ﷺ. ولكن فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلقد أحل الله له الغنائم ولم تحل لنبى قبله ﷺ. وأما قول الله تعالى: ﴿ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا** ﴾ فهو عتاب لبعض أصحابه ممن كان عنده – بعد الانتصار فى بدر – غرض لعرض الدنيا وحده والاستكثار منها، روى الضحاك قال (أنها نزلت حين أنهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشى عمر – رضى الله عنه – أن يعطف عليهم العدو) أى يميل عليهم ثم قال تعالى: ﴿ **لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ومعناها: لولا أنه سبق منى أن لا أعذب أحدا إلا بعد النهى لعذبتكم ولما لم أنهكم فلن أعذبكم.

وهذا كله ينفى الذنب والمعصية. لأن من فعل من أحل له لم يعص ولذلك قال الله تعالى: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

وروى الترمذى والحاكم بسند صحيح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: (خير أصحابك فى الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم فى العام المقبل مثلهم) فقالوا: الفداء ويقتل منا.

وهذا معناه: أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه وخيروا فيه لكن البعض

منهم مال إلى أضعف الوجهين. وكان الأصلح غيره. وهو الإثخان والقتل. فعوتبوا على ذلك وبين لهم أنهم قد اختاروا الأضعف. فهم ليسوا عصاة ولا مذنبين قال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء. وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه. فما عتب الله ذلك عليهم. وذلك قبل بدر بأزيد من عام.

فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسارى كان على تأويل وبصيرة على ماتقدم قبل ذلك مثله فلم ينكر الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسرارها – والله تعالى أعلم – إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ماكتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك. لاعلى وجه عتاب أو إنكار أو تذنيب. ا.هـ كما قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الشفا.

إذًا القضية ليست قضية ذنب ومعاتبة. وإنما هي مقام منّ وفضل وإنعام من العلي الكبير على نبيه ﷺ وأصحابه الكرام البررة رضوان الله عليهم.

ونكتفي بهذا القدر مما يسمى بآيات العتاب. وقد عرفنا أنها لم تكن للمعاتبة بقدر ماهي بيان لفضل الله عز وجل على نبيه ورحمته به ومنه عليه بما يستوجب شكر المنعم عز وجل.

* * *

تاسعا: الإسراء والمعراج

إن مما اختص به سيدنا محمد ﷺ رحلة الإسراء ورحلة المعراج. وهما معجزتان أوتيهما رسول الله ﷺ دون غيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فالإسراء: هي السير ليلا من مكة المكرمة إلى بيت المقدس والمعراج: هو العروج ليلا من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى ثم إلى مقام لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وقد أسرى برسول الله ﷺ وعرج به بروحه وجسده وإلا انتفت المعجزة. وكان تكذيب أهل مكة للرسول ﷺ عبثا. فكونهم يكذبون رسول ﷺ معناه أنه قد أخبرهم أنه قد أسرى به بروحه وجسده يقظة وليس مناما فلو قال لهم: كانت مناما ما كذبه أحد.

وقد دل على أن الإسراء كانت بالروح والجسد معا قول الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء: ١] ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وردت في القرآن الكريم بمعنى: التنزيه أو التعجيب أوبهما معا. وهي هنا جاءت بهما معا.

والعبد: اسم للروح والجسد معا قال تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا** ﴾ [الكهف: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾ [الجن: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ** ﴾ [العلق: ٩، ١٠].

والمراد: مجموع الروح والجسد وكذلك في آية الإسراء واستدل أيضا بقوله ﷺ في حديث الإسراء في رواياته الكثيرة والمتعددة (أسرى بي) وقوله فيه (رأيت ليلة أسرى بي) ومما هو معلوم و مقرر: أن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه.

وكذلك أخبر ﷺ أنه ركب دابة تسمى (البراق) بالتواتر والأرواح لا تحمل على دواب وإنما الأجسام هي التي تحمل على الدواب وقد قرر الجمهور: أن الإسراء بالروح والجسد يقظة مرة واحدة.. ولا مانع أن يكون ذلك قد تكرر مناما قبل هذه المرة أو بعدها.

وقد قال العلماء أقوالا عديدة في حكمة كون الإسراء ليلا. وكلها أقوال يعترض عليها لظهور بطلان بعضها. وبعضها يوهم التشبيه.

وأقول – بعون الله وتوفيقه – كان الإسراء ليلا. ليكون الدليل على إثبات وقوعه مما يصعب على رسول الله ﷺ تحصيله كون ظلام الليل يستره وهو: وصفه لبيت المقدس فيكون وصفة ﷺ لبيت المقدس أيضا معجزة لأن الرحلة كلها ليست من فعله. وإنما الذى أسرى به هو الله تعالى ولذلك لما طلب منه أهل مكة أن يصف لهم بيت المقدس لكى يؤمنوا بما قال. يقول: فكربت. فكشف الله له الحجب فرأى بيت المقدس وكأنه أمامه فوق جبل أبى قبيس المجاور لبيت الله الحرام. فأخذ يصفه لهم ويعدد لهم أبوابه ونوافذه ومعالمه.

هذا. ومما هو معلوم فى لغة العرب أن الإسراء معناه: السير ليلا وكان هدف الإسراء هو: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ يعنى ما رأى فى تلك الليلة من عجائب الآيات. كرؤية ثواب المجاهدين وعقوبة تارك الصلاة وأكلة الربا والزناة وغيرها.

وقد قالوا: إن الله تعالى قد أراه أمثلة لهذه الآيات. وهذا الكلام فيه قصور. والأحسن منه أن أقول: إن الله تعالى قد رفع الحجب وأطلع نبيه على عالم البرزخ فرأى فيه هذه الآيات التى رواها للناس. وهذا أيضا من تمام المعجزة. والله على كل شىء قدير.

(تنبيه) لقد تحدث رسول الله ﷺ فى مكة عن الإسراء فقط ولم يتحدث عن المعراج إلا بعد الهجرة فحدث بها أتباعه عليه الصلاة والسلام وقد تحدث عن الإسراء بمكة لأنها رحلة أرضية يسهل إقامة الدليل على وقوعها. وقد كان. أما رحلة المعراج فهى رحلة علوية لا يصدق بها إلا المؤمنون الصادقون فقط لأنه يصعب إقامة دليل يقع تحت الحس عليها. قال الإمام القسطلانى رحمه الله فى المواهب [1]:

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة: سبع إلى السموات. والثامن إلى سدرة المنتهى والتاسع إلى المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام فى تصاريف الأقدار والعاشر

---

(١) ٣/١٧.

إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة – أى بلا واسطة – والكشف الحقيقى :

وقد وقع له ﷺ فى سنى الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة لهذه المعاريج العشرة . ولهذا اختتمت سنى الهجرة بالوفاة وهى : لقاء الحق جل جلاله . والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق . وإلى الموعد الحق . وإلى الوسيلة . وهى المنزلة الرفيعة . كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس . انتهى .

وقال ابن أبى جمرة : أن الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند . لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلا إلى البيان والإيضاح حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها . وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك . فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسرى به إلى بيت المقدس . وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقى . فكان ذلك سببا لقوة إيمان المؤمنين . وزيادة فى شقاء من عاند وجحد من الكافرين . والله سبحانه وتعالى أعلم . أ . هـ .

كانت رحلة الإسراء سبيلا للإيمان برحلة المعراج . فمن صدق النبى ﷺ فى خبره عن الإسراء فحتما سوف يصدقه فى خبر المعراج ويدل على ذلك قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . عندما ذهب إليه بعض أهل مكة وأخبروه بما يقول النبى ﷺ فقال أبو بكر لهم : (لئن قال ذلك فقد صدق . إنا نصدقه فيما هو أبعد من ذلك – أى الأسراء – نصدقه فى خبر السماء) أى ما يأتى به الوحى من التنزلات على رسول الله ﷺ ولما جاء إلى النبى ﷺ قال له : إن قومك يقولون كذا وكذا . فأخذ النبى ﷺ يقص عليهم مرة أخرى . وأبو بكر يقول له : صدقت . قاوا : ومن أجل ذلك وصف أبو بكر بالصديق رضى الله عنه .

وفى صلاته إماما بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين دلالة على تقدمه عليهم وإعلانا لهم أن الزعامة الدينية قد انتقلت إلى العرب .

وحضور الأنبياء والمرسلين ليكونوا فى شرف استقباله فى نهاية الرحلة الأرضية وبداية رحلته إلى الملأ الأعلى

وفى هذا كله بيان لشرف المصطفى ﷺ ورفعة مكانته ثم خرج الرسول ﷺ من بيت المقدس ومعه مرافقوه واستأنف الرحلة الكبرى إلى العالم العلوى. وعلى أبواب كل سماء كان سيدنا جبريل يستأذن. فيقال له: من؟ فيقول جبريل. فيقولون له: ومن معك؟ فيقول: محمد فيقولوون: أو قد بعث إليه فيقول: نعم وهنا وقفة يسيرة: إن الملائكة يعرفون جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة ومع ذلك سألوا: ومن معك؟

وكان الباعث لهذا السؤال أنهم قد أبصروا أنواراً زائدة على أنوار الملائكة المرافقين للنبى ﷺ فسألوا فأخبروا بأن صاحب هذه الأنوار هو محمد ﷺ. فقالوا: أوقد بعث إليه؟ فهم كانوا يعلمون أن الله تعالى سيكرمه ولم يكونوا يعلمون زمن ذلك. فمعنى سؤالهم. أهذه هى الليلة الموعودة لتكريمه واخترق النبى ﷺ السبع الطباق حتى وصل إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله ما غشيها ابتهاجا بالزيارة المحمدية النورانية وروى أنه صلّى ثانية فى هذا المكان إماما بالأنبياء والمرسلين والملائكة وهذا معناه إعلان سيادته على العالمين. وإظهار شرفه وقدره أكثر فى العالم العلوى. وهذا من الله تعالى فضل كبير وعطاء جزيل ثم زج برسول الله ﷺ وحده فى بحار من الأنوار والتجليات حتى كان فى مقام القرب. مقام ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فكان ما كان. وأعطى من العطاء والفضل والفيض الإلهى ما أعطى وتجلى الله عز وجل عليه بما لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ فما هذا الذى رأى من الآيات. أبهم القرآن ذلك. لأنه حتما مما لا تطيقه عقولنا وأفهامنا.

وهل منَّ الله عليه بالرؤية؟ قال به البعض وأنكره آخرون. وأقول إن وقعت فليس ذلك بمستغرب لأنه من أمر الله وتكون الرؤية حينئذ بلا كيف ولا جهة.

وهذا النبى المصطفى ﷺ حبيب ومحبوب. ولا نسمح لأنفسنا أن نفتش

عما كان وما هو كائن وما سوف يكون – حيث لا كان ولا كائن ولا سيكون – بين المحبوب وحبيبه. وهو ما سكت عنه الحبيب ﷺ فإن فى ذلك السلامة ويكفينا ما قصه علينا من أحداث هذه الكرامة وفى مقام التجلى والعطاء فرض الله على رسوله ﷺ وأمته الصلاة. والصلاة عروج بروح المؤمن إلى الملأ الأعلى. والعبد فيها يكون فى الحضرة النورانية القدسية والتجليات الربانية والعطاء والرضا. ولذا لا يقوم بها غير صاحبها ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ ودخل الجنة ورأى ما فيها مما أعده الله تعالى لعباده من النعيم والرضوان وأبصر النار وأهلها ولذلك كان يخاف على أمته ويدعو ربه تعالى أن ينجى من العذاب أمته.

ثم قفل النبى ﷺ عائدا إلى فراشه الذى لم يبرد بعد وتلك آية عظمى تدل على أن هذه الرحلة لم تستغرق زمنا يذكر قال الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء ١] وقال عز وجل: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١ – ١٨] وروى مسلم عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقه التى يربط بها الأنبياء. ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت. فجاءنى جبريل بإناء من حمر وإناء من لبن فاخترت اللبن. فقال: جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل. فقيل من؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال

محمد. قيل وقد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بآدم ﷺ فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية. فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما. فرحبا بى ودعوا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة. فذكر مثل الأولى. ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف ﷺ. وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى. ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة. وذكر مثله. فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير. قال الله تعالى ﴿ورَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فذكر مثله. فإذا أنا بهارون. فرحب بى ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله. فإذا أنا بموسى. فرحب بى ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة. فذكر مثله. فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهبت إلى سدرة المنتهى. وإذا ورقها كآذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إلىَّ ما أوحى ففرض علىَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فإن أمتك لا يطيقون ذلك. فإنى قد بلوت – أى خبرت – بنى اسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربى. فقلت: يارب خفف عن أمتى. فحط عنى خمسا فرجعت إلى موسى. فقلت: حط عنى خمسا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاساله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال الله: يا محمد. إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر. فتلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشرا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا. فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى. فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربك فاساله التخفيف. قال رسول لله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه.).

قال القاضى عياض - رضى الله عنه - (١) ر جوّد ثابت رضى الله عنه هذا الحديث عن أنس - رضى اللهعنه - ما شاء. ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا)

وفى رواية أخرى لمسلم قال: (فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا: أعطى الصلوات الخمس. وأعطى خواتيم سورة البقرة. وغفر لمن لا يشرك بالله شيئا من أمته المقحمات) أى الكبائر المهلكات لقد بين لنا القرآن الكريم والسنة الشريفة أن النبى ﷺ قد أسرى بروحه وجسده يقظه لا مناما وكذلك عرج به هكذا وليس هذا بمستحيل. إن الله على كل شيء قدير.

يقول الأمير عبد القادر الجزائرى فى الموقف الواحد بعد المائة من كتابه «المواقف»: إنه أسرى بعبده محمد ﷺ بجسده وروحه ليريه من آيات الآفاق بعد أن آراه آياته في نفسه كما قال تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ أى أن ما رأوه هو الحق لا غيره. وهذه حالة المرادين

---

(١) الشفا ١ ٢٣٥. وقد روى حديث الإسراء والمعراج هذا فى صحيح مسلم وصحيح البخارى ومسند أحمد. وسنن الترمذى. وسيرة ابن هشام. وطبقات ابن سعد وتفسير ابن كثير والسيرة الحلبية. وغيرهم.

المجذوبين المصطفين. يريهم آيات الأنفس قبل آيات الآفاق خلاف المريدين. أ.هـ وفى هذا القدر كفاية. ولعل ما ذكرناه فى هذا الموضوع يشفى العليل ويشبع الصحيح السليم. والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

عاشرا: وأعطيت الشفاعة

لنبينا ﷺ الشفاعة العظمى يوم القيامة. وهو المقام المحمود الذى قال تعالى ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ولقد خصه الله عز وجل بالشفاعة تكرما منه عز وجل وفضلا على النبى ﷺ وعلى أمته.

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا. فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة).

ورويا عن جابر أيضا عن النبى ﷺ قال: (لكل نبى دعوة قد دعا بها فى أمته وخبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة) ورواه الترمذى وروى الشيخان أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (لكل نبى دعوة مستجابة. فتعجل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة. فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا).

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: أنه سمع النبى ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول. ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى علىَّ صلاة. صلّى الله عليه بها عشرا. ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون هو. فمن سأل الله لى الوسيلة. حلت له الشفاعة).

ورووا أيضا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

(من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته. حلت له شفاعتى يوم القيامة) .

وروى مسلم والبيهقى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى ابراهيم: ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [ابراهيم: ٣٦] .

وقال عيسى عليه السلام ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يده وقال: اللهم أمتى. وبكى فقال الله عز وجل: يا جبريل إذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله: ما يبكيك. فأتاه جبريل عليه السلام فسأله. فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم. فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك) .

وروى احمد ومسلم والترمذى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى. وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر) وروى فى كنز العمال ٣١٨٨١.

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه. قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون. فسمع حديثهم. فقال بعضهم: عجبا إن لله من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا. وقال آخر: ماذا يعجب من كلام موسى كلمه تكليما. وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر: آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم. فسلم وقال: (قد سمعت كلامكم وعجبكم. إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك. وموسى نجى الله وهو كذلك. وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك. وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك. ألا وأنا حبيب الله ولا فخر. وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولافخر. وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر. وأنا أول من يحرك حلق الجنة

فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر. وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر) .

وتلك الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذن الله عز وجل. سواء فى ذلك شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وشفاعة من دونه. وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه وبوقت الشفاعة. فليس الشفاعة إلا لمن أذن الله له فى الشفاعة. وليس له أن يشفع إلا بعد أن يأذن لله عز وجل له. وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى له أن يشفع فيه .

والشفاعة من قضاء الله عز وجل وقدره. لذلك لا تحصل إلا بإذن منه تعالى. وهى مما وعد به رسول الله ﷺ ومنّ به عليه .

قال الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

وقد سبق ذكر الأحاديث الدالة على اختصاصه ﷺ بذلك ولقد أنزل ربنا عز وجل فى القرآن العديد من الآيات الدالة على عدم قيام أى أحد بالشفاعة إلا بإذن الله تعالى. كما قال عز وجل ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣].

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٤] .

﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦].

﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧].

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩]

﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الانبياء: ٢٨].

وقال عز وجل في الكفار: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ [أى الكافرين] مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر ١٨].

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر ٤٨].

فالشفاعة ملك لله عزوجل ولا تسأل إلا منه. ولا تكون إلا بإذنه فيأذن لمن شاء أن يشفع فيمن شاء الله تعالى.

وللنبى ﷺ شفاعات يأذن الله تعالى فيها:

الأولى: الشفاعة العظمى. وهى له ﷺ خاصة دون غيره ممن خلق الله تعالى. وهى أعظم الشفاعات وهى المقام المحمود الذى وعده الله به فى القرآن الكريم. قال الإمام البخارى (١) رحمه الله تعالى:

باب قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن على. قال: سمعت ابن عمر رضى الله عنهما يقول: (الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع. حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى رسول

---

(١) صحيح البخارى ٨/٣٠٢، ٣٠٣.

الله ﷺ يوما بلحم فرفع إليه الذراع. وكانت تعجبه فنهش منها نهشة فقال: (أنا سيد الناس يوم القيامة. وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد. فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس. فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ومالا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض. ألا ترون ما أنتم فيه. ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم. فيأتون آدم فيقولون يا ادم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته. نفسى. نفسى اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبدا شكورا. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى نفسى نفسى اذهبوا إلى ابراهيم ﷺ. فيأتون إبراهيم. فيقولون: أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض. اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم ابراهيم ﷺ. إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وذكر كذباته. نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى ﷺ فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى. اذهبوا إلى عيسى ﷺ. فيأتون عيسى. فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمت الناس فى المهد وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه فاشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى ما

قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر له ذنبا نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى محمد ﷺ. فياتون فيقولون: يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى إلى ماقد بلغنا؟

فانطلق فاتى تحت العرش فاقع ساجدا لربى. ثم يفتح الله علىَّ ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلى ثم قال: يامحمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: يارب أمتى. أمتى. فيقال: يامحمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. والذى نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى) وبصرى بالشام. هذا لفظ مسلم والحديث متفق عليه قال الإمام السبكى فى شفاء السقام: وأما إلهامهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ولم يلهموا فى الابتداء سؤال نبينا محمد ﷺ فالحكمة فيه والله تعالى أعلم: أنهم لو سألوه ابتداء لأمكن أن يقول قائل: يحتمل أن غيره يقدر على هذا. وإنما بذلوا الجهد فى السؤال والاسْترشاد وسألوا غيره ﷺ من رسل الله تعالى وأصفيائه وأولي العزم فامتنعوا ولم يألوا جهدا فى النصح والإرشاد فانتهو إليه وحصل غرضهم به. حصل العلم لكل أحد بنهاية مرتبته ﷺ وارتفاع منزلته وكمال قربه وعظم إدلاله وأنسه وتفضيله على جميع المخلوقين من الرسل من الآدميين والملائكة.

وحق لصاحب هذا المقام أن يكون سيد الأمم وأن يسافر إلى زيارته على الرأس لا على القدم.

ثم قال: وفى التجاء الناس إلى الأنبياء فى ذلك اليوم أول دليل على التوسل بهم فى الدنيا والآخرة وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه. وهذا لم ينكره أحد.

وقال القاضى رحمه الله تعالى: يحتمل أنهم علموا أن صاحب الشفاعة محمد ﷺ معينا. وتكون إحالة كل واحد منهم على الآخر على التدريج.. الشفاعة فى ذلك إليه إظهاراً لشرفه فى ذلك المقام العظيم قال الحافظ ابن حجر ولاشك فى أن السائلين يومئذ من سمع هذا الحديث فى الدنيا وعرف أن ذلك خاص به ﷺ ومع ذلك فلا يستحضره إذ ذاك أحد منهم وكان الله أنساهم ذلك للحكمة المذكورة.

وقال الإمام الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر:

قال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه: وإنما أخبرنا ﷺ بأنه أول شافع وأول مشفع شفقة علينا لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب إلى نبى بعد نبى فى ذلك اليوم العظيم وكل منهم يقول نفسى نفسى. فأراد ﷺ إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصير فى مكاننا مستريحين حتى تأتى نوبته ﷺ ويقول (أنا لها. أنا لها) فكل من لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه لابد من تعبه وذهابه إلى نبى بعد نبى بخلاف من بلغه ذلك ودام معه إلى يوم القيامة. فصلى الله عليه وسلم ما أكثر شفقته على الأمة. وإنما قال فى الحديث (ولافخر) أى لا أفتخر بكونى سيد ولد آدم من الأنبياء فمن دونهم وإنما قصدت ذلك راحتكم من التعب يوم القيامة بحكم الوعد السابق لى من الله عز وجل أن أكون أول شافع وأول مشفع فما زكى ﷺ نفسه إلا لغرض صحيح. أ.هـ.

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: - (أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا..وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسو. لواء الحمد بيدى. وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر).

وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أنا أول شفيع فى الجنة لم يصدق نبى من الأنبياء ماصدقت. وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد).

الثانية: شفاعته ﷺ فى استفتاح باب الجنة.

روى مسلم عن أنس رضى لله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أنا أول الناس يشفع فى الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا) وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة. وأنا أول من يقرع باب الجنة) وروى مسلم أيضا عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (آتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح. فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)

الثالثة: شفاعته فى قوم من أمته يدخلون الجنة بغير حساب كما روى [1] (يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب مع كل ألف منهم سبعون ألفا).

الرابعة: شفاعته فى أناس من أمته نوقشوا الحساب واستوجبوا العذاب فيشفع فيهم ﷺ فيعفوا الله عنهم ويدخلهم الجنة.

الخامسة: شفاعته فى المذنبين الذين دخلوا النار لكى يعفو الله عنهم. وفى هذا المقام يأذن ربنا عز وجل بالشفاعة للنبى ﷺ ومن دونه من الأولياء والعلماء والشهداء والوالدين والأطفال الصغار من المذنبين فيخرجهم الله تعالى من النار إكراما لنبيه ﷺ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة. ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة) ورواه الترمذى.

وروى الترمذى عن عبد الله بن شقيق قال: كنت مع رهط بإيلياء فقال رجل منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى

---

(١) رواه الترمذى عن أبى أمامة.

أكثر من بنى تميم. قيل يارسول الله: سواك؟ قال: سواى) فلما قام قلت: من هذا؟ قالوا: هذا ابن أبى الجذعاء.

[هذا الحديث: حسن صحيح غريب. ورواه ابن ماجه أيضا]

فالشفاعة ثابتة لنبينا ﷺ بالقرآن الكريم وبأكثر من أربعين حديثا. رغم أنف المعاندين والمكابرين الذين يفتون فى دين الله بغير علم وردوا الشفاعة بحجج واهية ولا قيمة لها. وما علموا أن الشفاعة مما قضى الله تعالى وقدر وهى باب من أبواب رحمة الله عز وجل وعد بها من أرسله رحمة للعاملين. ﷺ.

* * *

حادى عشر: خير أمة أخرجت للناس

قال الله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...** ﴾ [آل عمران: ١١٠] اختص الله سيدنا محمدا ﷺ بخير أمة أخرجت للناس اصطفى أبناءها واختارهم وهداهم للإيمان فاستجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ. فكانت بحق أمة جديرة بنوال النعمة الكبرى والرحمة العظمى: سيدنا محمد ﷺ رحمة الله للعالمين. وقد ميزها الله تعالى عن غيرها من الأمم بخصائص هى:

١- آمنت بالله عز وجل ربا واحدا لا شريك له تعبده ولا تعبد سواه وصدقت بنبوة المصطفى ﷺ الذى اصطفاه منها.

٢- تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

٣- هم أقصر الأمم أعمارا وأكثرهم أعمالا.

٤- أمة مرحومة فى الدنيا وفى الآخرة: ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ [البلد: ١٧] وصلى عليها ربنا عز وجل: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ** ﴾.

٥- ناداها الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ونادى غيرها من الأمم (يا أيها الناس . . يابنى اسرائيل . . .) .

٦- من أتى منهم بحسنة كانت بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

٧- أحل الله لها الغنائم ولم تحل لأمة قبلها

٨- جعل الله لها الأرض مسجدا وترابها طهورا

٩- ينصرها الله بالرعب مسيرة شهر إن هى نصرت دين الله .

١٠- خصها بالأشهر الحرم فى زيادة الثواب وبشهر رمضان وبليلة القدر وبليلة النصف من شعبان وبالعيدين وبيوم عرفة ويوم الجمعة .

١١- رفع الله عنها العذاب ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الانفال : ٣٣] .

١٢- النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم فهذه الأمة التى تتمتع بهذه الصفات هى أمة سيدنا محمد ﷺ التى شرفت به وعلقت آمالها فى رحمة ربها عز وجل عليه ﷺ الذى هو رحمة لها فى الدنيا ورحمة لها فى الآخرة .

* * *

ثانى عشر : حوض نبينا ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ [سورة الكوثر] .

روى البخارى عن جندب قال : سمعت النبى ﷺ يقول : (أنا فرطكم على الحوض) (١) .

---

(١) فرطكم : الفرط الذى يتقدم الواردين فيهيئ لهم ما يحتاجون إليه . وهو هنا بمعنى الثواب والشفاعة . والنبى يتقدم أمته ليشفع لهم . أ.هـ. هامش اللؤلؤ والمرجان ٣ / ٧٦ .

وروى أيضا عن سهل بن سعد قال: قال النبى ﷺ: (إنى فرطكم على الحوض من مر على شرب. ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن علىَّ أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم) وفى رواية أبى سعيد الخدرى فأقول: إنهم منى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا. سحقا لمن غيرّ بعدى).

وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو قال النبى ﷺ: (حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن. وريحه أطيب من المسك. وكيزانه كنجوم السماء. من شرب منه فلا يظمأ أبدا)

وقال القاضى عياض رحمه الله تعالى: أحاديث الحوض صحيحة والإيمان به فرض. والتصديق به من الإيمان. وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا بتأول ولايختلف فيه. وحديثه متواتر النقل. رواه خلائق من الصحابة. أ.هـ.

إن الله سبحانه وتعالى قد اختص نبينا ﷺ بالحوض الذى سوف يقف عليه ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزهراء وأولادها فيسقون المؤمنين الصادقين شربة لايظمأون بعدها أبدا.

اللهم اجعلنا ممن يشربون من يد نبيك ﷺ شربة هنيئة مريئة لانظمأ بعدها أبدا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين لقد اختص الله عز وجل نبينا سيدنا محمدا ﷺ بمزيد من الفضل والجود والعطاء ومنّ عليه بالمنح والهبات والكمالات النورانية القدسية. ويكفينا هذا القدر الذى ذكرناه تحدثا بنعمة الله على حبيبه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

* * *

ثالث عشر: مقام الحب

من خصائص سيدنا النبى ﷺ: أن الله عز وجل قد منحه مقام المحبة. والمحبة أرفع من الخلة وأعلى من المعرفة فهما دونها. وهما سبيلها ويوصلان إليها. ولما

كان ﷺ أعلى قدرا وأرفع منزلة. تجلى الله سبحانه وتعالى على حضرته بمقام الحب الذى هو أعلى المقامات وأرفع الدرجات له ولأمته. روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار).

وقال ﷺ (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى بحب الله. وأحبوا أهل بيتى بحبى) رواه البخارى.

يقول الشيخ عبدالرحمن بن محمد الأنصارى فى كتابه « مشارق أنوار القلوب » أعلم أن المحبة هى أصل جميع المقامات والأحوال. إذ امقامات كلها مندرجة تحتها. فهى إما وسيلة أو ثمرة من ثمراتها كالإرادة والشوق والخوف والرجاء والزهد والصبر والرضى والتوكل والتوحيد والمعرفة ولهذا اختص بكمال هذا المقام سيد النبيين وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم. فإنه أعطى من سر هذا المقام مالم يعط غيره من الأنبياء عليهم السلام ولتحققه به. قال الله تعالى فيه: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

وحسبك أن جعل طاعته عين طاعته. ومحبته شرطا فى محبته. وماذاك إلا لأنه وَفَرَ نصيبه من نوره الذي أفاضه على العالم الأسفل بواسطته ،لذلك سماه نورا مبينا وسراجا منيرا. وجعله رحمة للعالمين. فبذلك النور كان عليه الصلاة والسلام يدعو الخلق إلى ربه تعالى ليوصلهم بالنور إلى النور. وهذا سر يفهمه أربابه الذين وصلوا إلى حقيقة الذوق لايمكننا النطق به.

شربنا على زهر الربيع المفوَّف ... وجاء لنا الساقى بصهباء قرقَف

فلما شربناها ودب دبيبها ... إلى موضع الأسرار قلت لها: قفى

مخافة أن يسطو علىَّ شعاعها ... فيطلع جُلاَّسى على سرى الخفى

ويقول: المحبة لا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها. ومن ذاقها استولى عليه من الذهول عن ماهو فيه أمر لايمكنه معه العبارة. كمثل من هو طافح سكرا إذا سئل عن حقيقة السكر الذى هو فيه لم يمكنه العبارة فى تلك الحال لاستيلائه على عقله. والفرق بين السكرين. أن سكر الخمر عرضى يمكن زاله ويعبر عنه فى حين الصحو. وسكر المحبة ذاتى ملازم لايمكن من وصل إليه أن يصحو عنه حتى يخبر فيه عن الحقيقة. كما قيل:

يصحو من الخمر شاربوها .. والعشق سكر على الدوام.. أ.هـ

هذا: ولا يوصل إلى المحبة إلا المعرفة بكمال المحبوب وجماله. إذ من لايعرف لايحب. فالمحبة ثمرة المعرفة والمعرفة علة المحبة وسببها.

وقالوا: إن المعرفة متقدمة على المحبة بالسبب والمحبة متقدمة عليها بالشرف من حيث أنها مقصودها. فكل محب عارف وليس كل عارف محب إذا كان فى ابتداء المعرفة. فأما إذا كانت المعرفة تامة وكاملة حصلت المحبة. فحينئذ يكون المحب هو نفس العارف والعارف هو عين المحب.

إن رسول الله ﷺ قد تجلى عليه المولى عز وجل بالمعرفة وبالمحبة المؤكدة. فصار ﷺ حبيبا ومحبوبا لتجلى أوصاف البارى عز وجل له. وهذا من فضله وبره حيث تفضل بمنح المصطفى ﷺ هذا المقام العالى وهذا الشرف الرفيع. وهو مما اختص به ﷺ فهو حبيب رب العالمين سبحانه وتعالى اللهم ارزقنا حبك وحب كل مايوصل إلى حبك وحب المصطفى ﷺ وحب آله الكرام وصحابته رضى الله عنهم أجمعين.

* * *

رابع عشر: أسماء النبى ﷺ

لقد تكلم فى أسماء النبى ﷺ بعض العلماء وقاموا بإحصائها منهم: القاضى عياض، وجلال الدين السيوطى ومحيى الدين بن عربى وعبدالكريم

الجيلى وابن القيم والجزولى والقسطلانى ويوسف أفندى زاده وخلاصة ما توصلوا إليه من حصر أسماء النبى ﷺ هو ما أورده صاحب دلائل الخيرات رحمة الله تعالى إذا يقول:

فاعلم أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله. احمد. حامد. محمود. أحيد. وحيد ماح. حاشر. عاقب. طه. يس. طاهر. مطهر. طيب. سيد. رسول. نبى رسول الرحمة. قسيم. جامع. مقتفى. مقفى. رسول الملاحم. رسول الراحة كامل. إكليل. مدثر. مزمل. عبد الله. حبيب الله. صفى الله. نجى الله. كليم الله. خاتم الأنبياء. خاتم الرسل. محيى. منيح. مذكر. منصور. نبى الرحمة. نبى التوبة. حريص علكيم. معلوم. شهيد. شاهد. مشهود. بشير. مبشر. نذير. منذر. نور. منير. سراج. مصباح. هدى. مهدى. داع مدعو. مجيب. مجاب. حفى. عفو. ولى. حق. قوى. أمين. مأمون. كريم مكرم. مكين. متين. مبين. موصل. وصول. ذو قوة. ذو حرمة. ذو مكانة ذو عزة. ذو فضل. مطاع. مطيع. قدم صدق. رحمة. بشرى. غوث. غيث غياث. نعمة الله. هدية الله. عروة وثقى. صراط الله. صراط مستقيم ذكر الله. سيف الله. حزب الله. النجم الثاقب. مصطفى. أمى. مختار أجير. جبار. أبو القاسم. أبو الطاهر. أبو الطيب. أبو ابراهيم. شفيع مشفع. صالح. صلح. مهيمن. صادق. مصدق. صدق. سيد المرسلين. سيد الأنبياء. إمام المتقين. قائد الغر المحجلين. خليل الرحمن. بر. مبر. وجيه نصيح. ناصح. وكيل. متوكل. كفيل. شفيق. مقيم السنة. مقدس. روح الحق روح القدس. روح القسط. كاف. مكتف. بالغ. مبلغ. شاق. واصل. موصول سابق. سائق. باد. مُهد. مَهْد. مقدم. عزيز. فاضل. مفضل. فاتح. مفتاح الرحمة. مفتاح الجنة. علم الإيمان. علم اليقين. دليل الخيرات مصحح الحسنات. مقيل العثرات. صفوح من الذلات. صاحب الشفاعة. صاحب المقام. صاحب القدم. مخصوص بالعز. مخصوص بالمجد. مخصوص بالشرف صاحب الوسيلة. صاحب السيف. صاحب الفضيلة. صاحب الإزار. صاحب الحجة.

صاحب الريان. صاحب السلطان. صاحب المغفر. صاحب اللواء. صاحب البراق. صاحب الخاتم. صاحب العلاقة. صاحب البيان. فصيح اللسان. مطهر الجنان. رءوف. رحيم. أذن خير. صحيح الإسلام. سيد الكونين. عين النعيم. عين الغر. سعد الله. سعد الخلق. خطيب الأمم. علم الهدى. كاشف الكرب. رافع الرتب. عز العرب. صاحب الفرح. رفيع الدرجات. كريم المخرج ﷺ.

إن الرسول ﷺ يكون بهذا العدد الكثير من الأسماء والصفات قد تفوق على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم. وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى. وقد استخلص العلماء هذا العدد الكثير من الأسماء والصفات من القرآن الكريم ومن السنة النبوية يقول ابن القيم فى زاد المعاد: (وأسماؤه ص ﷺ نوعان هما: خاص: لا يشاركه فى معناه غيره من الرسل. كمحمد واحمد العاقب والحاشر والمقفى ونَبِى الملحمة. والثانى: مايشاركة فى معناه غيره من الرسل ولكن له منه كما له. فهو مختص بكماله دون أصله. كرسول الله ونبيه وعبده والشاهد والبشير والنذير ونبى الرحمة. ونبى التوبة.

وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم. تجاوزت أسماؤه المائتين كالصادق والمصدوق والرءوف الرحيم إلى أمثال ذلك. أ.هـ وقد ذكر العلماء: الشيخ محيى الدين بن عربى. وعبدالكريم الجيلى والقاضى عياض وجلال الدين السيوطى رحمهم الله تعالى: كل واحد منهم قائمة بأسماء النبى ﷺ من أسماء الله الحسنى التى خلعها الله على نبيه ﷺ. ومجموع هذه القوائم بعد استبعاد المكرر منها هو: سبعة وستون اسما خلعها الله تعالى عليه من أسمائه الحسنى. ويشاركه فى بعضها بعض الأنبياء نوح وإبراهيم واسماعيل واسحاق ويوسف وموسى وأيوب ويحيى وعيسى عليهم السلام كما ورد فى القرآن الكريم فى آيات عديدة فى سورة: الإسراء(٣) والتوبة (١١٤) والصافات (١٠١) ومريم (٥٤، ١٤، ٣٢) والحجر (٥٣) ويوسف (٥٥) والصف (٢٦) والدخان (١٧) وص (٤٤).

وقد قسم هذه الأسماء التى حلاه الله بها من الأسماء الحسنى الدكتور عبد العزيز أبومندور فى كتابه «الاصطفاء والاجتباء وأنوار الأنبياء» (ص ٢٩، ٣٠) أربعة أقسام حسب تقسيم الشيخ/ عبدالكريم الجيلى لأسماء الله الحسنى فى كتابة الكمالات الالهية فى الصفات المحمدية وذلك كما يلى :

(جدول تقسيم أسماء النبى ﷺ التى حلاه الله بها من الأسماء الحسنى)

(١) أسماء ذات	(٢) أسماء جلال	(٣) أسماء جمال	(٤) أسماء مشتركة أو كمالية
أحد	جبار	كامل	جامع . مهيمن
نور	شهيد	(فى معنى	عدل، حكيم
حق	قوى	التمام)	ولى . على . أعلى
قدوس	سيد (يس)	محيى	أول . آخر
	صابر . صبور	بر . رحيم	ظاهر . باطن
	عزيز	عفو . غفور	مقسط . حى
	عظيم	وكيل . حميد	(كما جاءت فى
	مجيد . ماجد	حليم . كريم	الفتوحات)
	(صاحب المجد	حفيظ . عليم	غنى . مقدم . قريب
	وصاحب	خبير . فتاح	برهان
	الشرف)	سلام . مؤمن	حميد . ن
	شكور	رءوف . معطى	ذو الجلال والإكرام
	قائم	كاف . شاف	
	واضع	حسيب . صادق	
	(خافض رافع)	رفيع الدرجات	

ثم يقول : ومن هنا يكون قد فاق كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى كثرة عدد الأسماء الخاصة . كما فاقهم فى اختصاصه بالكمال والتمام فى الأسماء

المشتركة إذن يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى فضل المصطفى الأول ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام. بما خصه به من أسمائه الحسنى التى تقرب من ستين إسما أو يزيد لو أخذنا أسماء الاشتقاق. فى حين لم يكن لغيره سوى أسم أو أسمين. هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية: فإن أسماء الأنبياء عليهم السلام التى خصهم الله بها لاتخرج عن أسماء النبى ﷺ. بل هى متضمنة فيها. فله مالهم. وكل ما تفرق فيهم من صفات المجد والشرف والكمال. وزاد عليهم بما حباه الله تعالى من صفه الختم. فكان جامعا لأسمائهم والجامع من أسمائه ﷺ وبهذا يكون له فضل التقدم عليهم والتفرد من دونهم بصفة الكمال. أ.هـ وهكذا يمجد الله تعالى حبيبه ﷺ ويشرفه ويد لّله. وأى مخلوق يحظى بهذا كله؟ إنه سيدنا محمد ﷺ.

* * *